أحلام يوسف

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠١٠/٥/١٧٢٧

٨١٣،٩
الفقيه، إبراهيم
أحلام يوسف، إبراهيم ذيب الفقيه عمان: دار فضاءات، ٢٠١١
الواصفات:القصص العربية/ العصر الحديث.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل للمؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

iSBN 978-9957-30-181-1

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ٢٠١١
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
أحلام يوسف –إبراهيم ذيب نافع الفقيه-الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان- شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران
تلفاكس: ٤٦٥٠٨٨٥ (٦ -٩٦٢+) هاتف جوال: ٧٧٧/٩١١٤٣١(٩٦٢+)
ص.ب ٢٠٥٨٦عمان ١١١١٨ الأردن
Dar_fadaat@yahoo.comE.mail:
Website: http://www.darfadaa.com
التوزيع في تونس:
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصرII - تونس ٢٠٣٧
تلفاكس: ٢١ ٦٥ ٨٢ ٧٠ (٢١٦+) - الجوال ٣٩ ٤٢ ٢٩ ٩٨ (٢١٦+)
E.mail: fadhahet @yahoo.com
http://www.darfadaa.com Website:
الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

طبع بدعم من وزارة الثقافة
2 0 1 0

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء لواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار **فضاءات للنشر والتوزيع**.

إبراهيم الفقيه

أحلام يوسف

رواية

فضاءات للنشر والتوزيع

إنَّ الطير الذي يغرز الشوكة في صدره يتبع بذلك قانوناً ثابتاً يفرض نفسه عليه، ولا يعلم ما الذي يدفعه إلى غرز الشوكة في صدره، كما لا يعلم بأنَّ الموت قادم.. لكنه يغرد ويغرد إلى أن لا تبقى فيه ذرة من الحياة لنغمة أخرى، فيموت وهو يغني.. أما نحن، فعندما نغرز الأشواك في صدورنا، فإننا نعلم ونفهم.. ومع ذلك نحن نفعل ذلك.

كولين مكلو/ رواية طيور الشوك

***

مريم

اقتربت عقارب الساعة من الحادية عشرة صباحاً، وكان لزاماً على يوسف جاسر الفهد أن يمر على سوق عمان المالي، بعد أن تدهورت أسعار البورصة في أسواق المال المحلية والعالمية.. أسرع إلى بناية بنك الإسكان في منطقة الشميساني، شاهد جموعاً محتشدة ترقب الشاشة المتحركة، سلّط ناظريه على أسماء شركات يعرفها جيداً، عشيت عيناه وشعر بدوار في رأسه، انتحى جانباً وجلس على مقعد قريب ساهماً يفكر بالأحداث المتسارعة.. اقتحم وجه ابنته عفاف ناظريه، فجأة اختفى وجهها، وظهر وجه أحلام، تتابعت الصور في مخيلته، ظهر وجه والده جاسر الفهد يرقبه من بعيد، وجه أخيه ناصر، وجه مريم، ثم وجه أحلام من جديد.

صحا من فترة اللاوعي على ضجيج وصخب المساهمين.. عاد إلى الشاشة الكبيرة وحدّق بها ثانية.. وجوه ضبابية تأتي وتروح، ووجوه تنفلش في رأسه.. واصلت أسعار الأسهم المدرجة في البورصة تراجعها، وانخفضت بشكل لم يسبق له مثيل منذ سنوات عديدة.. سمع أحدهم يقول "هذا غير معقول" وراح يضرب رأسه في أحد الجدران.. ضرب آخر كفاً بكف ولطم وجهه قائلاً "خسرت كل ما أملك".. ومع أن يوسف حاول الخروج بأقل الخسائر إلا أنه لم يستطع، وفي يوم واحد فقط، خسر أكثر من أربعين بالمائة من رأس ماله.

شعر بالضياع، وبدا له أن كل شيء جميل في حياته تمزق، وانهارت أحلامه كما تنهار العمارات التراثية الجميلة في فلسطين بفعل ضربات الجرافات الإسرائيلية.. قام وتمشى في الممرات، أحس بالشرر يتطاير من عينيه، أخذ عرق برائحة كريهة يتفصّد من جسده، انتابته قشعريرة، استند على جدار قريب، جال ببصره يميناً ويساراً، أحس بالجدار الذي يستند عليه يهتز، شاهد الناس يتأرجحون، مقاعد ورؤوس وأجساد مقلوبة، كائنات لامرئية تغدو وتجيء أمامه وتتراقص في عينيه، احتراق يستعر داخل جسده، ويمتد إلى جمجمته، بدأ يترنح يميناً ويساراً، فجأة سقط على الأرض، حاول النهوض، تقافزت أمامه أشباح، رأى الأضواء شفافة مسربلة بالضباب، ومصابيح خافتة تتأرجح فوق رأسه، تلاشت الأصوات، تلاشت الرؤيا، غاب عن الوعي، وعم سكون الموت.

استيقظ بعد منتصف الليل منهك القوى.. زوجته مريم وابنه خالد كانا يقفان قرب سريره في مستشفى فلسطين الذي لا يبعد مئات الأمتار عن المكان.. قالت الممرضة التي اتصلت بزوجته عن طريق هاتفه النقال أنه أصيب بغيبوبة من جراء ارتفاع السكري.. ومع أنه لم يشعر بعوارضه من قبل، إلا أن الأطباء أكدوا له بعد ثلاثة أيام أن هذا المرض "صديق عمره الجديد"، سيلازمه بقية حياته.

***

في البيت، شعر أنه خائر القوى، جمع شتات أفكاره، وراحت الأحداث تتسلل إلى ذاكرته من جديد.. استسلم لعجزه واستلقى على الأريكة، وعيناه مفتوحتان تحدقان في سقف الغرفة، تجاهل نصائح الطبيب بعدم التدخين، أشعل سيجارة وراح ينفث دخانها الأزرق صانعاً حلقات تخرج من أنفه وفمه.. شده المنظر وأخذ يرقب الحلقات المحومة أمام ناظريه، تتبدد وتبتعد حتى تتلاشى نهائياً.. شعر أن عقله توقف عن التفكير.. أسدل ستارة تفكيره، وحجب الرؤيا عن كل ما يصله بالواقع.. غابت كل الكائنات وسكنت الأصوات، وحضرت غابة أحزانه.. نظر لمرآة معلقة على الحائط، لم يرَ سوى أثر من ظلال وجهه، ظلال مرعبة أدخلت الخوف إلى فؤاده، ابتعد قليلاً عن المرآة وتمعن في معالم صورته، عاد واقترب قليلاً، شاهد الظلال مشوهة، والصورة داكنة.. حاصرت المرآة وجهه وقلبت كل معاييره، انهار بنيانه الذي حمله طيلة سنوات عمره، أصابه زلزال عنيف، ردم كل ماضيه وقتل طفولته في لحظة.. تناول المنفضة بما فيها من أعقاب سجائر وقذف بها المرآة، انهارت ظلال وجهه وتناثرت إلى أشلاء في أرجاء الغرفة.. غرق في اكتئابه وعاد إلى طفل في السابعة من عمره، بكى وصاح وانفجر وتمرد على نفسه، قذف بالكأس الذي أمامه نحو الجدار، وقف وضرب الحائط بجبينه، استسلم للحائط وخر على ركبتيه ينتحب.

جاءته زوجته مريم حزينة مجروحة، ممزوجة بغضب دفين.. صبت كل لومها وآلامها عليه، ثم أحضرت له فنجاناً

من القهوة وجلست على مقربة منه، حاولت إرضاءه بما تيسر لها من كلمات بسيطة.. تجاهل كلماتها وراح يقلب محطات التلفاز متجنباً النظر إلى عينيها.. حاول أن يعبر عن انزعاجه بطريقة ما.. تناول منديلاً ورقياً ومسح العرق المتصبب من جبهته ووجهه،ثم ألقى بالمنديل على السجادة.

حاولت مريم التعبير عن انزعاجها من تصرفاته، لكنها كظمت غيظها، تناولت المنديل عن السجادة وولجت المطبخ.. تساءل في قرارة نفسه، "لماذا كلما اقترب منها وأراد ضمها يتشظى وجهها أمامه إلى عشرات الوجوه؟".. يتذكر كل لحظات الشقاء والتعاسة التي مرت بحياته معها، ولا يعود يرى غير لسانها السليط وحقدها الأعمى على جميلة زوجة أبيه، على والدته، وعلى كل نساء الأرض!

لا تدري مريم كيف يتشظى وجهه هو أيضاً عندما تنظر في وجهه، اعترفت له بذلك ذات يوم أثر فورة غضب، قالت أنها لا ترى فيه غير ظلم والدها، وتهديده لوالدتها بالزواج عليها مع كل خطأ بسيط.. ترى فيه وجوه أبناء عمومتها وأقاربها، يحدقون فيها بشماتة.. ملأت الشكوك رأسها، وراح صراع سرمدي مع المرض وعدم الثقة بالآخرين يمزق كيانها.

منذ ثلاثة أشهر لم ينم يوسف معها في فراش واحد، ومع ذلك قرر ذلك المساء أن يتناسى خسارته المادية ويحرر نفسه من الماضي، كما يحرر نفسه من قيود أحلام ذات الوجه الغض والعينين الخضراوين الواسعتين، وطلب منها أن تسبقه إلى غرفة النوم وتتجدد مع الحياة..

أسرعت مريم إلى المرآة في حجرة نومها، سرّحت شعرها، ووضعت مكياجاً خفيفاً على وجهها.. نظرت في المرآة ملياً وقررت أن تحرر وجهها من الماضي أيضاً، خلعت كل شياطين أفكارها، وتجردت من كل شيء خارج حدود المرآة.. ركزت على عينيها، ففيهما السر، وفيهما السحر الذي يفجر في زوجها الرغبة، وحرصت على عدم القيام بأي حركة مباشرة توحي له برغبتها باستدراج حبه عمداً.. سألته إذا كان ما يزال يحبها!.. نظر في وجهها وقال: تسألينني بعد أكثر من عشرين سنة مضت على زواجنا، كان ثمارها ثلاث بنات وولدين!.. قالت بدلال: ومع ذلك أحب أن أسمعها دائماً.. لم يجب، مرر أطراف أصابعه على وجهها.. ضغطت بكفها على أصابعه، شعر وكأنها تمسك يده للمرة الأولى، قربتهما من شفتيها وقبلت أطراف أصابعه، تسللت يده مبتعدة وراحت ترسم حدود الوجه والجبهة والعينين، وهربت عيناها بإسبالة ذبول وتعب دون أن تتفوه بكلمة.. شعر أن باستطاعته أن يفعل شيئاً.. باغته صوتها، "بحبك"، شاهدها تنظر في عينيه مباشرة، تتمعن عميقاً في ملامحه، وتغوص في بحر حب عميق وبعيد.. أحس بجسدها ككتلة ملتهبة بين يديه.. اقتربت منه والتصقت بجسده.. تراجع إلى الوراء، اقتربت فابتعد أكثر.. عبق الجو وفاحت في أعماقه رائحة عجز وذكريات مؤلمة.. تكسرت كموج وأجهشت بالبكاء.. توقفت يداه عن الحركة.. انكمش وتراجع دون أن يقول شيئاً.. دهشته عادلت دهشتها.. ودون إدراك أمسك بكتفيها، وشدهما بقوة، حاول نفضهما ففشل، خانه لسانه

المنعقد في سقف حلقه أيضاً، صمت وتراجع إلى الوراء.. وفي لحظة ضعف مباغته، شعر أنه تحول إلى تمثال من الشمع ممسوح التضاريس، فاقد الإحساس بارد الملمس.

تحامل على ساقيه وألقى بثقله على السرير.. ذاب التمثال الشمعي وتحول إلى كتلة متداخلة متعرجة التضاريس.. ذابت الكلمات مع عجزه، وبدا الارتباك واضحاً على معالم وجهه، نظر إلى وجهها وغض بصره بعيداً.. زادت تنهداتها ارتباكه، حاول ابتلاع ريقه الجاف فلم يجده.. شاهدها تغرق في دموعها، ولم تعد قادرة على التنفس، شهقت منتفضة، نظرت إلى وجهه عبر المرآة، تأملته جيداً.. تمطى وجه والدها وعبر وجهها وعينيها وجسدها من جديد.. مرّ وقت طويل وهي تحدّق في الصمت، فجأة جفلت، لملمت شعرها المتناثر على منكبيها، وانقضت على البرواز الذي يغلف صورتها بثياب الزفاف مع صورته وألقته على الأرض، تمزقت وشتمت في أعماقها.. كبرت اللعنات في صدرها، كبرت الآلام، تكورت على السرير وراحت تهيل الدموع.

لاذ بصمته وانطوى خارج حجرة النوم، أطفأ المصباح وتكوّر على الأريكة، حاول أن يتخفى وراء خيبته فلم يستطع.. هاجمته ذكريات قديمة وحديثة.. أغمض عينيه، ومع ذلك ظلَّ يشاهد نظرات مريم ودموعها في أعماقه تلاحقه بتداعيات غريبة، تجتاحه مثل أمواج المحيط، المشكلات اليومية لم تتوقف منذ يوم الزفاف.. تراكمت وشكّلت أزمة حقيقية مزمنة.. كان ينهض صباحاً، يشرب القهوة، يمضي إلى العمل، ويغرق في

دهاليزه المملة، وفي آخر النهار يعود ويأوي إلى فراشه.. تطارده الذكريات، تطارده نظراتها، تطارده نظرات زوجة أبيه جميلة، وتطارده وجوه لا يذكر متى شاهدها، أو كيف مرت في حياته.

***

سنوات طويلة مرت، وما زالت الأحداث محفورة في ذاكرته.. فمنذ أن شاهد مريم للمرة الأولى، قبل أكثر من عشرين عاماً أثناء العشاء الذي أقامه خاله حامد سلوم لهم بمناسبة عودتهم من السفر إلى عمان، تعلق بها.. كان الوقت مساء والفصل شتاء، وكانت المدفأة مشتعلة، ومريم تأتي وتغدو وتحلّق مثل فراشة ملونة، وعندما أحضرت الشاي بعد العشاء، وانحنت تقدمه لعمتها، تنبّه لتكوير ثدييها المشدودين وقوامها الرشيق.. فجأة استشعر باضطراب يلفه، أحس أن ذهنه بُحيرةٌ نائية صافية الماء تعتكر على حين غرة.. وما أن جلست قبالته، ووضعت ساقها على الأخرى، حتى تعلقت عيناه بها، وابتسمت له دونما تكلف.

كانت ترتدي تنورة حمراء وقميصاً أبيض، وشعرها الأسود مسترسلاً على كتفيها، وجلست تتحدث عن حاجياتها التي لا تشتريها إلا من أرقى المحلات في جبل عمان وجبل الحسين، وعن صديقاتها اللاتي يقطن في منطقة عبدون والمناطق الغربية الراقية.. كانت تتحدث بتعالٍ وفوقية، ومع ذلك أذهلت

يوسف بكلماتها ومدنيتها، وتساءل في دخيلته، كيف لم يعرفها من قبل!

استقطبت اهتمامه طوال الوقت بما توافر لها من رصيد جاهز لإثارة عواطفه، ومع ذلك استشاط غيظاً حين انتهت السهرة، ولم يجد فرصة واحدة يعبّر بها عما يجيش في نفسه.

لم يذق طعم النوم تلك الليلة، وقبل الفجر غفا لدقائق معدودة، تراءى له طيفها كملاك يهبط من السماء، تأخذه بين ذراعيها ويطوفان حقولاً ومروجاً خضراء واسعة.. في الصباح اجتاحته فكرة الاقتران بها، وأكد لنفسه أنَّ حلمه سيتحقق.. أسرع إلى بيت خاله ثانية رغم برودة الجو وتساقط الثلوج، قال لعمته أنه يشعر بالسعادة، وأنه لم ير الطبيعة بيضاء بهذا الجمال منذ سنوات عديدة.. جلس قرب المدفأة قبالة مريم.. استند إلى ظهر مقعده وقد توتر جسده قليلاً.. وحتى ذلك الوقت لم يبح بشعوره لها، غير أن نظراته تلك اللحظة كانت شبيهة بشرارة ائتلقت سراً بين الجليد وتحت الجلد.

دلفت والدتها المطبخ، قامت مريم من جانب المدفأة ووقفت قرب النافذة ترقب تساقط الثلج.. تبعها وفتح زجاج النافذة، ومد يديه ليلتقط ندفاً منه، كانت الثلوج تنهمر بغزارة، غطت سطوح بيوت عمان بالكامل، وأصبحت شوارع المدينة وأرصفتها والحقول المجاورة صفحة بيضاء، وراحت أغصان الأشجار ترتعش وتتكسر تحت وطأة وثقل الثلج مع شدة الرياح العاصفة.. أدار وجهه وتأمل وجه مريم.. اندفعت ندفة ثلج واستقرت على حاجبها.. أغمضت عينيها، حدّق في عينيها

المسبلتين، بدا له أن ملامحها مضببة بنعومة، مثلما وردة تمسك بها أصابع مرتجفة، وراح اللون القرمزي المخفف الذي يكسو شفتيها يتوهج كزهر اللوز.

اقترب منها، التصق جسده بجسدها، أمسك أصابع يدها بيده، وتسللت صاعدة إلى معصمها، أحس بلذة ومتعة غمرت كل جسده، وجعلت قلبه يزداد خفقاناً، وراح عرق رغم برودة الجو يسح من كل مكان في جسده.. حرّكت يدها وأصابعها كي تظفر هي الأخرى بالإمساك بكفه وأصابعه.. أخذ قلبه ينبض بعنف.. تمنى لو يطبق شفتيه على شفتيها.. عادت والدتها تحمل صينية نحاسية عليها فناجين قهوة.. تباعدا، وراحا يحدقان في الفضاء.. بدت السماء الممتدة أمامه بيضاء تبهر العيون، رمقتها والدتها بنظرة تأنيب وخرجت، أغلقت مريم النافذة وعادت إلى مقعدها قرب المدفأة.. فجأة، أشاحت بوجهها عنه، ودون أن يعرف السبب، نظرت إليه وقد تغيرت طريقة تصرفها تماماً، وانسلت مختفية خلف والدتها تاركة يوسف يضرب أخماساً في أسداس.

اهتاج قلبه وازداد خفقانه في صدره، ارتعش جسده، ووقف حائراً لا يدري ماذا يفعل حيال تصرفها المفاجئ.. بعد دقائق عادت، تأسفت عما بدر منها وقالت "أشعر أننا تمادينا في تصرفاتنا
أكثر من اللازم"..

قال "كنت أعتقد أنك تبادليني نفس الشعور الذي أكنه لك في قلبي"..

همست "أرجوك، هذا يكفي، يكفيني العذاب الذي ألاقيه أثناء غيابك، وأنت لا تشعر بوجودي"..

صمت لحظة، قال "كم أشعر بالندم لأني لم أعرفك قبل هذه الأيام".

قالت بدلال: هذا لأنك تملك عينين ولا تملك قلباً.

ابتسم وقال: الآن وقد ملكتُ قلباً، أتقبلين الإقامة فيه؟

نظرت إلى عينيه مباشرة، أضاف: أعتقد أن قلبي لم يعد ملكاً لي بعد هذه الأصفاد التي قيدتِه بها.

ذابت الكلمات عن شفتيها، توردت وجنتاها واحمر وجهها كعذراء ليلة زفافها، واختفت من أمامه.. وفي الأيام اللاحقة استقبلته بابتسامة رقيقة وكلمات ناعمة معسولة.. شعر أنه يملك كنوز الدنيا.. وفي لحظات مسروقة من عمر الزمن، تبادلا القلوب والقبلات والصور، وأقسم أنه يحبها ولن يتخلى عنها، ووعدها أنه سيبحث موضوع خطبتها مع أبيه في أقرب فرصة.

***

ما زال يوسف يذكر تلك الأحداث كما لو أنها وقعت بالأمس.. ويذكر أنه رافق والديه صباح اليوم التالي إلى سوريا، حيث يقيم قريبه "أبو أحمد"، الذي غادر فلسطين منذ أيام النكبة عام ١٩٤٨م وانقطعت أخباره، ومر أكثر من ثلاثين

عاماً قبل أن يتصل بأحد من أقربائه، بعد أن عدّه الأهل فيمن تبقى منهم في فلسطين وفي الأردن في عداد المفقودين.

مساء ذلك اليوم، وفي بيته الريفي، في إحدى القرى جنوب دمشق، ذرف أبو أحمد الدموع وهو يشم فيهم رائحة الأهل والأقارب بعد الغياب الطويل.. وفي الصباح اتصل بولده أحمد الذي يعمل معيداً في جامعة دمشق، ودعاه للحضور للتعرف على أقربائه، ثم ذبح الذبائح وأقام الولائم، ودعا جيرانه من أهل القرية للعشاء في بيته احتفاء بقدوم أبناء عمه.. وراحت ابنته "جميلة" تقوم على خدمتهم شأن بنات القرى، وترحب بالأقرباء الذين قدموا من عاصمة الأردن التي لم ترها من قبل.

طالت سهرتهم تلك الليلة، تحدث أبو أحمد عن ذكرياته، واسترجع أيام شبابه مع أبي يوسف أثناء التحاقهم بالثورة قبل الهجرة من فلسطين، وكيف ظل لسنوات طويلة يعود إلى الوطن متسللاً في ليالي المنافي والقهر والتشرد.. إلى أن استقر به المقام مزارعاً في قرية جنوب دمشق.. ثم تدريبه لرجال المقاومة في المعسكر الذي أقاموه قرب جبل الشيخ، بعد أن عادت المنظمات الفلسطينية للنشاط من جديد قبل حرب عام ١٩٦٧م.. وأضاف أبو أحمد أنه تزوج ثلاث مرات، وأمسى جداً بعد أن زوّج بناته الثلاث وولديه، أما ابنته الرابعة جميلة والتي لم تتجاوز الثامنة عشرة بعد، فقد أقسم أن لا يزوجها إلا لأحد أقاربه.. وضحك وهو يضيف أنه جمع زوجتين في بيت واحد، وحين كان يغضب منهما، يقسم عليهما بالطلاق أن ينام بينهما في غرفة واحدة.

تلك الليلة، تشعب حديث أبي أحمد وطال الأقارب والزواج والمصاهرة، وقال بلا مقدمات وهو ينظر إلى يوسف:

- المثل يقول "اخطب لبنتك قبل أن تخطب لابنك"، وأنا أقسمت أن لا أزوج جميلة إلا لأحد أقاربها، وكأن الله استجاب لدعوتي قبل موتي، فبعثكم إليّ في الوقت المناسب.. وأعتقد أني لن أجد لها عريساً أعز وأفضل من يوسف، والجمل بما حمل، هي وما تملك هدية له.

فوجئ يوسف ولاذ بالصمت، فقال والده:

- لقد وفيت وكفيت، ولم يعد لنا كلمة، وإذا شاء رب العالمين تكون من نصيبه..

وقبل أن ينهي كلمته قاطعه أبو أحمد:

- نقرأ الفاتحة على بركة الله.

تسارعت الأحداث تلك الليلة كرياح عاصفة، ولم يدر يوسف كيف تم كل شيء بهذه السرعة دون أن يأخذ والده رأيه أو يستشيره في الأمر، وكأن الموضوع لا دخل له فيه.. فجأة تأرجحت صورة مريم أمام ناظريه، وشعر بدوار يلف رأسه.. فقام واختلى بوالدته في غرفة مجاورة، وأسر لها عما دار أثناء السهرة، قائلاً أنه لا يدري كيف يفكر والده، وكيف وافق على قراءة الفاتحة دون استشارته! وتساءل ألا يوجد بنات في عمان!.. وأعلن رفضه لهذا الزواج طالباً منها أن تبلغ هذا الرفض لوالده.

سألته إذا كان يعرف فتاة بعينها، قال "مريم ابنة خالي".. قطبت والدته جبينها وقالت بدهشة "مريم! ما شفت في عمان غيرها! هذه ابنة أخي وأنا أعرفها أكثر منك، تزوج أي واحدة إلا مريم، إنها متكبّرة، لسانها سليط وما بتقدر تعيش معها".

هبّ يوسف في وجه والدته، وقال أنها لا تعرف شيئاً عنها.. عندئذٍ كظمت غيظها ونصحته أن يتريث في الأمر.. وقالت لزوجها جاسر: كان من الأفضل أن تأخذ رأيه قبل أن تورّطه ببنت لم يعرفها ولم يرها من قبل.

رمقها جاسر بعينيه وقال "أنتِ تعتبرين زواجه من جميلة ورطة!؟".

أجابت إنه لا يريدها..

حمحم وكأنه يحدث نفسه "أعرف أنك وراء كل مصيبة".

قالت "تصرف مع ابنك على كيفك، ولا دخل لي فيما ينوي فعله"، واختلت بنفسها، وهي المرة الأولى التي تختلي فيها، ولا تكيل له الصاع صاعين.

استشاط جاسر الفهد غضباً، وقال لولده يوسف "أنا أبحث لك عن عروس تسترك، بنت أصل وفصل، ومن أقاربنا، وأنت ترفض!".

- أنا لا أرفض الزواج، لكني أرفض هذه البنت..

قاطعه والده: الآن صار لك لسان وتحكي بعد قراءة الفاتحة.

- وهل أعطيتني فرصة، أو سألتني عن رأيي فيها؟

- اخرس ولا تفضحنا أمام الأقارب، وسنتحدث في هذا الموضوع بعد عودتنا إلى عمان.

- خير البر عاجله.. قال يوسف، وسحب صورة من محفظته ودفعها إلى أبيه، وأضاف: هذه صورة التي اخترتها لتكون شريكة حياتي.. انظرْ إليها، وقارن بينها وبين جميلة.

نظر والده إلى الصورة، وقبل أن ينطق بحرف، أضاف يوسف "إنها مريم ابنة خالي، وأريد أن تخطبها لي".

غضب والده، ألقى بالصورة في وجهه، لعنه ولعن والدته على مسامعها، وأقسم أن لا تكون هذه الفتاة حليلته طالما هو على قيد الحياة.

وفي غرفته الذي يقيم فيها مع زوجته، أخذ أبو يوسف يفكر في الأمر، وتساءل عن سر سكوت زوجته "أمينة" فجأة بعد توبيخه لها.. وحدث نفسه، هل هو هدوء البركان الذي يخمد مدة من الزمن ثم لا يلبث "على حين غرة" أن يبدأ في قذف الحمم والأحجار الملتهبة.. أم أنها كظمت غيظها حتى تعود إلى عمان!.. وتذكر كيف أن والده الفهد أرغمه على الزواج منها دون أن يستشيره، ومع أن حياته الزوجية معها استمرت، إلا أنه ما زال يضيق ذرعاً بها، ولا زال على خلاف معها.. أقنع نفسه بالأمر، لكن ما كان يؤرقه أنه وعد ابن عمه أبا أحمد وقرأ فاتحة جميلة، ولم يجد مبرراً معقولاً لعزوف ابنه عن الموافقة عليها.

لم يهجع يوسف للنوم تلك الليلة، كما لم ينم والده، ظل قلقاً، وعند الفجر قام الجميع توضأوا وصلوا جماعة، ومع بزوغ الشمس استأذن أبو يوسف من ابن عمه "أبو أحمد" بالرحيل والعودة إلى عمان، واعداً إياه بالعودة في أقرب فرصة.

***

كانت مريم ذات شعر أسود فاحم وعينين نجلاوين، جميلة المبسم رشيقة القوام، ما جعل يوسف ينظر إليها نظرة جديدة بعد الزواج كلما تمعّن في صفاتها، خاصة وأنه وجد فيها زوجة قادرة على تلبية رغباته العاطفية.. ومع أنها كانت تشكو صداعاً نصفياً في رأسها منذ الأسبوع الأول لزواجها، إلا أنه لم يأخذ ذلك محمل الجد، واعتقد أن ذلك من طبيعة المرأة لاستدرار عطف زوجها، وكان كلما اقترب منها تبتلع قرصاً من الأسبرين، وتعيد الابتسامة إلى شفتيها.

بعد خمسة أشهر مرضت مرضاً شديداً، بدا وجهها الجميل يميل للاصفرار ويزداد شحوباُ، وحركاتها تتثاقل وتزداد كسلاً.. عرضها على طبيب، أعطاها الأخير بعض المهدئات، وقال إن ذلك بسبب الحمل الأول.. إلا أن والدته أمينة لم يرق لها هذا الرأي، وأسرعت إلى جارتها "أم حسن" وعرضت الأمر عليها، فهي كما يقال عنها "ذات يد مبروكة"، لأنها تعرف الكثير مما لا يعرفه الآخرون.. فعندما يفقد أحدهم شيئاً، أو عندما يصاب أحدهم بالعين، فالحاجّة أم حسن تساعد الجميع، وتجد حلولاً مناسبة لمشاكلهم.. قالت:

- سأكتب لها حجاباً تعلقه في عنقها، فمعظم الأمراض ناتجة عن الحسد.

لكن أدعية أم حسن وحجابها لم ينفعا مريم، وعندما ازداد مرضها، قامت بزيارتها في البيت، جلست قربها وقالت: اطمئني يا حبيبتي مريم، سيشفيك الله، ولا بد أن يفيدك دوائي، كما أفاد الجميع.. وأخذت تتفحصها، وتضيف: توكلي على الله يا حبيبتي، هذا مرض بسيط، وهو نفس المرض الذي أصاب أم محمود وشفيت منه، بعد أن وصفتُ لها الدواء المناسب.. وجلست تتحدث عن نساء شفين على يديها.. أخبرتها أولاً عن المريضة التي كانت على شفا الموت، وكيف أرسلوا في طلبها فعالجتها حتى شفتها، ولم تنس أن تروي كيف أعطوها عشرين ديناراً ثمناً للأدوية التي قدمتها.. ثم قامت وأحضرت صحناً من الألمنيوم فيه قليل من الجمر، وضعته جانب السرير وأخذت تتمتم ببعض الأدعية، والبخور الذي وضعته فوق الجمر يحترق وينشر دخاناً كثيفاً طيب الرائحة.

وفي الأيام التالية، ظلت أم حسن تزور مريم في البيت، تحرق البخور، وتأخذ بدل ذلك ما تحتاجه من ملابس ونقود، وأقنعتها أنها عملت حجاباً ليوسف، حتى لا ينظر إلى امرأة غيرها.. وهذا ما رسّخ الثقة بين المرأتين، فقويت علاقتهما، وصارتا مثل شقيقتين.

قبل موعد ولادتها بشهر واحد، تغيرت نظرات مريم عن ذي قبل، ولاحظ يوسف مدى التغيير الذي طرأ عليها، أخذت تندفع نحوه بكل عواطفها وأحاسيسها، وكان يسهر على

راحتها، ويقوم على خدمتها بنفسه، كما يقضي أوقاتاً طويلة جانبها.. وكانت مريم تعيد الفضل لحجاب الحاجّة أم حسن وأدويتها.

***

صباح أحد الأيام نهضت مريم من نومها وهي ترتدي ثوب النوم الزهري الفضفاض، وقفت أمام المرآة، وأخذت تنظر إلى جسدها.. فانفرجت شفتاها عن ابتسامة الرضا والترحيب بطفلها القادم.. وفي مستشفى الولادة بدا يوسف قلقاً عليها، وقف قرب الباب ينصت إلى أنينها وصراخها أثناء الولادة.. وكان بين وقت وآخر يقابل الممرضات، فيسألهن عن زوجته، وهو أشد ما يكون قلقاً عليها.. إلى أن خرجت إحداهن وقالت له "مبروك، بنت".

اندفع يوسف إلى زوجته مريم، ابتسمت والدموع تملأ عينيها وقالت "كنت أتمنى أن يكون مولودي الأول ذكراً".. فقاطعها وهو يطبع قبلة على جبينها "بنت أو ولد، كله من عند الله.. والحمد لله على سلامتك".. انفرجت أسارير مريم، بينما أخذ يوسف ينظر إلى طفلته الجديدة، كانت حمراء اللون مجعدة البشرة كأنها لعبة محشوة قديمة.. ولم يمض وقت طويل حتى نعمت بشرتها وازداد جمالها، وكان يردد دائماً أن "عفاف" ورثت جمال أمها ومزايا والدها.

***

جاسر الفهد

تجاوزت عقارب الساعة الثانية عشرة ليلاً ويوسف يراجع أوراقه وحساباته التجارية ومساهماته المالية.. فجأة دق جرس هاتفه المحمول وقطع حبل أفكاره.. جميلة "زوجة أبيه" كانت على الطرف الآخر، قالت بلا مقدمات "الحق أبوك يا يوسف، وقع أثناء صعوده الدرج، ونقلناه إلى مستشفى الحياة".

هبّ واقفاً، لبس ثيابه وحذاءه، وأسرع يقود سيارته إلى المستشفى الذي لا يبعد سوى مئات الأمتار عن مكان اقامته.. وفي ممر قسم الطوارئ جلس ينتظر لوقت طويل، بعد أن تم نقل والده جاسر الفهد إلى قسم التصوير بالأشعة.. وقرابة الساعة الثالثة صباحاً أظهرت النتائج أنه يعاني من نزيف في رأسه، وأنه بحاجة إلى عملية مستعجلة.

وكما تنتشر النار في الهشيم، انتشر الخبر خلال ساعات معدودة بين أفراد العائلة.. تقاطر الأقارب بعد الساعة الثامنة صباحاً إلى المستشفى، وأخذوا يرقبون حالة الحاج جاسر الفهد الصحية.. بينما جلست زوجته أمينه قبالة ضرتها جميلة في غرفة الانتظار، وقد أشاحت كل منهما بوجهها عن الأخرى، وراحت تحدجها بطرفي عينيها.

قام الأطباء بإجراء عملية سريعة لجاسر الفهد، وفي اليوم الثالث استقرت حالته، وراح عن غير وعي يستدعي أسماء عزيزة من ماضيه السحيق.. غاب الحاضر واستيقظ الماضي في أعماقه، عمره تجاوز الخامسة والسبعين، أخذ يتلفظ بأسماء قرى فلسطينية وقرى القدس الغربية، القسطل، صوبا، عين كارم، أبو غوش، خربة اللوز، خربة العمور، صطاف، وأسماء قطع أراضي قريته التي لم يرها منذ عام ألف

وتسعمائة وثمانية وأربعين، استرجع أسماء أقربائه الميتين والطيبين، واستدعاهم واحداً واحداً، بينما غابت أسماء أنجاله وأحفاده وزوجتيه عن ذاكرته، ولم يتعرف على أحد من الموجودين قرب سريره.

جلس يوسف قرب سرير والده، وأخذ يتساءل في قرارة نفسه عن الطب الذي تقدم كثيراً، لماذا لا يشفي والده؟!.. وراح يستعيد ما رزح في ذاكرته خلال سنوات عمره الطويل.. بدت الذكريات متداخلة، شريط ملتبس من أحلام اليقظة والواقع واستلاب الروح المختطفة.

كشظايا شهب، تراءت له الأحداث ووالده يرقد على سريره في المستشفى.. حدث نفسه "يولد الإنسان ويتزوج ويموت، لا يختار وقت ولادته، كما لا يعرف متى يموت.. أما الزواج فلا يعدو كونه ورقة يانصيب".. وراح من خلال حكايا العمر يتذكر ما روى له والده جاسر الفهد من أحداث..

(وُلد جاسر الفهد في إحدى قرى القدس الغربية، وفي سنوات طفولته هام في أرضها وبساتينها، وعلى مدى سنوات عمره، لم ينس كيف كان ينصب الفخاخ للعصافير، ويغفّ بعضها في أعشاشها.. كما لم ينس المعارك غير المتكافئة التي

شارك فيها مع شباب القرية الثوار وهم يتصدون لعصابات اليهود، الذين فشلوا في اقتحام قريته واحتلالها أكثر من مرة.

ذات ظهيرة، وبينما كان جاسر الفهد عائداً من فلاحة أرضه لتناول طعام الغداء في بيته، وكان في الثامنة عشرة من عمره، شاهد شقيقته التي تكبره بعامين تجلس مع فتاة أخرى في فناء البيت، استوقفه جمال الفتاة، سأل والدته عنها، قالت إنها "عايدة" بنت مختار القرية المجاورة، جاءت مع والدها لطلب شقيقتك إلى أخيها.. ابتسم وقال "ليتها تكون من نصيبي".. ابتسمت والدته وقالت "والله ما أنت قليل يا ولد" وأضافت وهي تعد وجبة الغداء "المهم موافقة أبيك، وبدل العرس يكون عرسين".

لم تسعه الفرحة، وتيسرت السبل أمام هذا الزواج البدَل، ولم يمض شهر حتى أقيمت الأفراح لليال أربع، وفي اليوم الخامس حمّموه بين الشباب، وأركبوه على حصان أبيض، وزفوه.. وفي نفس المساء زُفت شقيقته إلى عريسها، كما زُفّ إلى عروسه التي رف قلبه لها من النظرة الأولى.

***

ذات مساء، وقبل أن ينقضي شهر على زواج جاسر الفهد، عادت شقيقته إلى بيت والدها الفهد من القرية المجاورة باكية

نائحة.. قالت إنها فقدت زوجها بعد أن اقتحم رجال المقاومة البيت وأخذوه مكبّلاً، مدعين أنه يتعامل مع اليهود، أركبوه على حمار أعرج، وأداروا وجهه إلى الخلف بعد أن علقوا في رقبته حذاءين، وطافوا به الشوارع الضيقة وسط القرية، ثم أطلقوا عليه الرصاص وقتلوه.. وراحت تبكي وتهيل الدموع، وتقول أنها ترملت قبل أن يمضي شهر على زواجهما.

صباح اليوم التالي، وقبل أن تبزغ الشمس، جمع الفهد أولاده على عجل، وقال لابنته مواسياً "هذه غلطتي يا ابنتي، وهذا نصيبك، وكان المفروض أن أتحرى عنه قبل أن أوافق على هذا الزواج، امسحي دموعك، فهذا الكلب لا يستحق ظفرك".. ثم طلب من ابنه جاسر أن يطلق زوجته قبل أن تعود إلى أهلها.. فقال جاسر دون وعي أو إدراك "وما ذنبي أو ذنب زوجتي في الأمر؟".

احتد الفهد وغضب من جواب ابنه، وقال:

- تقول ما ذنبك أو ذنب زوجتك!؟ فكر بعقلك.. هل تقبل أن تكون زوجتك أخت عميل! أو يكون خال أولادك جاسوساً للأعداء!.. ماذا سيقول الناس عنك؟!.. هذا عار للأبد لا يتحمله أي فلسطيني شريف.. طلقها الآن قبل أن تطلع الشمس..

ركضت عايدة وركعت عند قدمي الفهد.. استسلمت لقدرها كطفل، بكت، انتحبت، تشبّثت بملابسه وصرخت "أنا لا دخل لي بالموضوع".. ثم استدارت وأمسكت بيد زوجها جاسر الذي لزم الصمت.. لكن والده ألح عليه بغضب "هيا، ارمِ عليها يمين الطلاق"..

أدار جاسر وجهه جانباً وقال "أنتِ طالق".. واختفى في ظلام غرفته قبل أن تفضحه مشاعره، فيما إذا كان سيراها بعد تلك الليلة، أم أنها النهاية فعلاً.. وأضاف والده موجهاً كلامه إلى عايدة "هيا احملي أغراضك وعودي إلى أهلك".

***

سبعة أشهر مرت بعد ذلك اليوم.. أعلن الفهد زواج ولده جاسر للمرة الثانية بنفس طريقة البدَل بسبب حالته المادية من عائلة سلوم المعروفة في قريته.. لكن الزواج لم يكن متكافئاً هذه المرة.. فزوجة جاسر الجديدة "أمينة" لم تكن بجمال زوجته المطلقة "عايدة"، كما أنها كانت تكبره بعامين، أما شقيقته فقد تزوجت من شاب يصغرها بعامين.

لم تمض أشهر معدودة حتى دوّت انفجارات عنيفة، وتساقط رصاص عصابات اليهود من كل حدب وصوب على القرية

عام ١٩٤٨م، دكوها بالمدافع، قاوم رجالها ببسالة، تراجع المعتدون أكثر من مرة، وفي معركة القسطل استشهد والده الفهد كما استشهد الكثير من رجال المقاومة المدافعين عن القرية.. وكسمكة تخرج من البحر إلى حتفها، زافرة آهات تحرق حواف القلب والروح، اضطر جاسر الفهد إلى الرحيل عن القرية، بعد أن دكها اليهود بمدافعهم أكثر من أربع وعشرين ساعة متواصلة، دمروا بيوتها، ثم تسللوا ليلاً ودمروا مسجد القرية الوحيد والمدرسة الابتدائية التي لم يكتمل بناؤها بعد، كما دمروا ما تبقى في القرية من عمران، ولم يتركوا فيها حجراً على حجر.. وفي طريقه نحو الشرق مع عائلته، راح يوسف يزفر ويلعن حظه العاثر، كما يلعن التاريخ والجغرافيا والرياضيات التي لم يتعلم منها غير البدائيات في ساحة جامع القرية، على يد الأستاذ فريد مقابل بيضة ورغيف.

كان الرحيل يشبه يوم القيامة، لا أحد يستشير أحداً فيما يفعله، وكانت نقطة التجمع لأهالي القرية رأس أبو عمار، بعد أن أقاموا في خربة اللوز ثلاثة أيام، رحل معظم أهالي القرى وتشردوا بين الجبال والوديان، وفي قرية حوسان مكث جاسر الفهد مع أسرته وبعض العائلات أكثر من شهرين، ثم توجهوا نحو العيزرية، وراحوا يشقون طريقهم نحو الشرق.

بلدة الكرامة في غور الأردن كانت محطة إقامته الأولى بعد مروره من أريحا ومكوثه في مخيم عقبة جبر عدة أيام.. وحين كان جاسر الفهد يعود بذاكرته إلى الوراء، ويروي حكايا الهجرة والتشرد على مسامع عائلته، يتذكر كيف كان في بلدة الكرامة يخبئ جبهته بين راحتيه ويخفي أحاسيسه، وهو يقف تحت أشعة الشمس الحارقة في طابور طويل من المهجرين، للحصول على بضعة أرطال من الطحين، ونصف كيلو من كل من المرجرين والتمر والحليب المجفف والسكر الأحمر.. بعد أن خسر أرضه وبيته ووطنه.

بعد أقل من عام انتقل جاسر الفهد مع عائلته إلى عمان، أول ما تعرّف عليه شارع الملك فيصل، وعجب لذلك الزحام العجيب الغريب من المهجرين والباحثين عن ذويهم وأهاليهم وأقاربهم.. والعربات والأحصنة والبغال والحمير والبضائع والحلويات والنفايات وزحمة الناس.. وعند الجامع الحسيني الكبير وسط عمان، والشمس تلاحقه باصفرار أشعتها قبيل الغروب، كان يجلس ويتأمل وجوه الناس، والفجيعة تعلن عن نفسها في نظراتهم، خطوط قهر محفورة في وجوههم، ضياع وتساؤل، تيه، همّ يكسو سحن الجميع، بعضهم يتأسى على الأثاث الذي خسره مع أنه اشتراه قبل التهجير بعدة أشهر،

وبعضهم يتـأسى علـى الـدار التي بناها ولم يسكنها، في حين لا يجدون لهم تلك الأيام فراشاً يريحون أجسادهم عليه.

نام على أكتاف الطرق الترابية مع عائلته، وفي الصباح لحق بأسراب المشاة وهم يتبعون مجرى الماء على سقف السيل في شارع المهاجرين، شارع ترابي طويل يمتد حتى رأس العين، يحاذيه سوق لبيع المواشي، إلى أن حط به المقام في خيمة صغيرة بين أقاربه، قرب شارع ترابي يربط عمان بقرية ناعور، قيل أنه شارع القدس.

وخلال العامين التاليين، تناثر الأهل والأقارب من مكان إقامتهم في طريق ناعور، واستوطنوا جنوب عمان، منهم من أقام في كهف أو بيت صغير في القويسمة يقيه حر الصيف وبرد الشتاء، ومنهم من حاز على مسكن في مخيم الوحدات يتكون من حجرتين صغيرتين بلا مرافق داخلية، حيث كانت الحمامات وصنابير المياه عامة ومشتركة بين الجميع.. ومنهم من أقام في حي نزال أو الجبل الأخضر..

أما جاسر الفهد، فقد ظل مع بعض أقاربه في طريق ناعور، وراح يعارك الحياة، تنقل من عمل إلى آخر بأجرة يومية زهيدة، لا تكفي حاجة الأسرة، ومع طلبات العائلة الكثيرة، أخذ يتشاجر مع زوجته أمينة لأتفه الأسباب، وفي الليل كان الفراش يجمعهما كجثتين في فراش واحد.

حزينة بدت أمينة ذات ليلة، وهي ترضع وليدها يوسف، بعد أن وجدت في جيب زوجها جاسر صورة لفتاة جميلة الوجه، ورغم أنه قال إنها صورة لمطربة جديدة قصها من إحدى المجلات، إلا أنها أصرت على شكوكها واتهامها له بعلاقة مع صاحبة الصورة.. وبعد مشادة كلامية، صفعها على وجهها.. فجأة تكور جسدها واندفع إلى شفتيها رغوة بيضاء.. وقعت على الأرض وانتابتها نوبة مفاجئة من الصرع، وكأنما سكن فيها شيطان راح يتقاذفها وينطح الأرض برأسها.

عرضها على الأطباء، بدت تعليلاتهم حائرة أو ساذجة، وراح المرض يلقي بظلاله الكئيبة عليها.. وحين ألمح أبو يوسف لأحد أقاربه عن لياليه المعذبة، أشار عليه الأخير باللجوء إلى أحد الشيوخ، والخرزة الزرقاء.

كتب لها الشيخ الضمراوي حرزاً سرياً، ونصح زوجها جاسر أن يضع المصحف تحت وسادتها بعد أن يقرأ عند رأسها بعض الآيات القرآنية.. فنامت تلك الليلة بهدوء وراحة.

وخلال تلك الفترة تنوعت أعمال جاسر الفهد، من عامل باطون إلى حصّاد بأجرة يومية، راح يفلح الأراضي التي كان يضمنها من الشراكسة الذين استوطنوا عمان منذ فترة طويلة، ويزرعها تارة الحبوب وتارة البقوليات أو الخضار.. وحين تقلصت الأراضي الزراعية بفعل البناء الذي هجم عليها مع

ثورة العمران، أخذ يفلح بعض الأراضي البعيدة في مرج الحمام وناعور والقويسمة وأم العمد وقعفور.. واستطاع خلال تلك الأيام أن يبني بيتاً من الطين والحجارة الصغيرة مكوناً من حجرتين بدل الخيمة التي كان يقيم فيها.. ثم راح يعمل في مقالع ومطاحن الحجارة المحيطة بشارع القدس جنوب عمان.. إلى أن وجد عملاً خارج البلاد وسافر إلى المملكة العربية السعودية.

وفي مكان عمله الجديد، كانت تتراءى له خصوماته مع زوجته أمينة كشظايا حارقة.. ومع أنه كان يأتيها شهراً في كل عام أو عامين لتحمل مخلوقاً في أحشائها، يقول له بعد عامين "بابا"، إلا أنه كان مخطئاً في نظرها على الدوام، وكانت تتوهم دائماً أنه سيتزوج عليها، أو أنه متزوج فعلاً من امرأة أخرى في غربته.

ومع أنَّ السنوات مرّت، إلا أن جاسر الفهد لم ينس تلك الأيام التي عاشها مع زوجته الأولى عايدة، وكانت تمر بخاطره مثل حلم عابر، لا يعرف إذا كان حدث فعلاً أم هو من نسيج خياله.

أفاق يوسف من بحر شروده على صوت أحد الأطباء يقول "لقد زال الخطر عن والدك، وسيتعافى بإذن الله في القريب العاجل".. وفي غرفة الانتظار سمع والدته أمينة تقول وكأنها تحدث نفسها

"الله يُمهل ولا يُهمل، أخذته مني طول هذه السنين، أرادت أن تحرق قلبي، لكن الله سيحرق قلبها عليه، سيأخذه منها كما أخذ غيره".. وكانت تعني ضرتها جميلة وزوجها جاسر الفهد.

***

جميلة

تحسنت صحة جاسر الفهد، وتم نقله إلى بيته عند زوجته جميلة، وكان لزاماً على يوسف أن يسهر على راحة والده تلك الأيام.. قالت جميلة وهي ترتب فراش زوجها وتغطيه بعد أن غط في النوم، بأنها لم تخبر ابنها ناصراً الذي يتابع دراسته في جامعة دمشق بمرض أبيه.. فقال يوسف: خيراً فعلتِ.. فهذه الأيام وقت امتحانات الجامعة.

رمقته جميلة بطرفي عينيها وقالت أن والده ينتظر تخرجه من الجامعة بفارغ الصبر، ويتمنى أن يفوز بشهادة الدكتوراه مثل خاله الدكتور أحمد..

لاذ يوسف بصمته، أضافت أنها ستخلد للنوم، "وإذا أردت شيئاً فاقرعْ باب غرفتي".

لم يقل شيئاً، وحدث نفسه "لم تتغير جميلة مهما طال بها الزمان وعصف".

تلك الليلة، ظل يوسف ساهراً قرب سرير والده حتى الصباح.. ولم يكن مرض أبيه يقضّ مضجعه، كما لم تكن تصرفات زوجته مريم معه أو تجارته.. بل الأمر على العكس، فقد غرق في ذكريات قديمة مع زوجة أبيه جميلة، وهو يرى والده وقد انتابه شعور غريب، وغمرته كآبة حزينة بعد أن خذله يوسف ورفض ابنة عمه أبي أحمد.. هجر والده الطابق الأرضي الذي يقيم فيه مع زوجته أمينة، وأخذ يختلي في الطابق الثاني، يغلق الباب على نفسه وينفرد لساعات طويلة، وخلال عام كامل بدا شارد اللب وكلماته مقتضبة.. وفي صباح أحد الأيام حمل حقيبته وقال أنه عائد إلى عمله.

ذات ليلة، وبعد أقل من شهر على غياب جاسر الفهد، وبينما كـان يوسـف يتـابع فلمـاً عربيـاً قـديماً مـع زوجتـه مـريم علـى التلفـاز، سمع جلبـة عنـد البـاب، نظـر مـن خـلال عـين البـاب السحرية، فشاهد والده يتخطى باب الطـابق الأول ويصـعد إلـى الطابق الثانـي الذي فرشه أثاثاً فاخراً قبل عدة أشهر.. خمّن أنه يصطحب ضيوفاً معه.. في الصباح صعد إليه، فتح والده الباب وهو يرتدي منامـة مـن الحريـر.. غرابـة المنظـر ألجمت لسـان يوسف، حدق في والده وبوده أن يسأله عن ثوبه الذي اعتاد أن يرتديه أثناء نومه.. قطـع والـده حبـل أفكـاره وقـال بنبـرة حـادة: ادخل..

سـأله يوسـف إذا كـان عنـده ضـيوف؟.. فـردد والـده ثانيـة: ادخـلْ.. ثـم صـاح مناديـاً: "يـا جميلـة! تعـالي يـا جميلـة، هـذا يوسـف".. وإذ بسيدة بثـوب أبـيض طويـل يغطـي حتـى قـدميها تظهر من حجرة داخـلية، تتقـدم بخطـى خجولـة وتقف أمامه.. أضـاف: هذه زوجتي جميلة.

وقف يوسـف مشـدوهاً، نظـر إليهـا وتغيّـرت ملامـح وجهـه، أصابه ذهول وتلعثم، قال: أهذه ابنة أبي أحمد التـي..

قاطعه والده وقال بحدة: هذه زوجتي جميلة، ابنة عمك "أبـو أحمد".

شيء ما تفجر داخل يوسف، أحس ببراكين ملتهبة تصعق جسده وروحه، وخرج من البيت يتعثر في خطواته.. وجد نفسه في الطابق الأرضي عند والدته، قال لها بلا مقدمات: والدي تزوج جميلة بنت أبي أحمد، صُعقت والدته ولم تصدق ما سمعت، وأسرعت إلى الطابق العلوي.. بعد دقائق سمعها تصرخ، وشاهدها تهبط الدرج تتلفظ بكلمات نابية.. أخذت تجمع ملابسها وتبعثر كلماتها هنا وهناك، "خائن، ناكر للجميل، تحملته في فقره، صبرت عليه، وعندما امتلأت جيوبه تزوج امرأة أصغر من بناته".. ارتدت عباءتها وأقسمت أن تغادر البيت، هدّأ يوسف من ثورتها وأقنعها بالعدول عن رأيها.. بكت، تألمت، وأخذت تذرف الدموع.. فجأة أصابتها نوبة غضب جديدة، انتفضت، لطمت وجهها.. وأقسمت أن تسوّد عيشته وعيشة زوجته الجديدة، وقالت "هذا جزائي بعد هذا العمر"، وأحست بغيرة قاتلة وهي تراه يستعيد شبابه، ويعيد عقارب الزمن أكثر من عشرين عاماً إلى الوراء مع امرأة غيرها.. وبعد أن هدأ يوسف ثورتها قالت أنها كانت تفضل لو كان جاسر صادقاً معها، ويقول أنه ذاهب إلى الشام ليحضر زوجة ثانية، بدل أن يراوغ ويقول أنه عائد إلى عمله.. لكنه بعمله هذا سبب لها جرحاً نازفاً لا يشفى، وهي تجلس في بيتها تنتظر

عودته بفارغ الصبر.. وأقسمت أن لا تدع زوجها يمسها حتى آخر يوم في حياتها.. لكن جاسر الفهد لم يأبه لتهديداتها، وما هي إلا أيام قليلة، سافر بعدها مع زوجته جميلة إلى مكان عمله، بعد أن وافقت السلطات السعودية على منحها تأشيرة سفر بناء على طلبه.

كان يوسف يسترجع الأحداث بذاكرته، ويتذكر ما قالته جميلة يوم ولادتها للمرة الأولى لوالده.. يومها ابتسمت بدلال وقالت "مبسوط مني، لقد أنجبت لك "ناصر" الذي كنت تنتظره"، عند ذلك ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه جاسر الفهد وقال "إن شاء الله يطلع مثل خاله دكتور".

ومع أنَّ هذه الأحداث مرت قبل أكثر من عشرين عاماً، إلا أن عقل يوسف الباطني ما زال يحتفظ بها، وما زالت والدته أمينة تحقد على ضرتها جميلة التي تقيم في بيت مستقل قريب من عمارة زوجها ذات الأربعة أدوار في ضاحية الياسمين.. كذلك زوجته مريم، فما زالت تبدي غيرتها من جميلة، تحاصر زوجها يوسف بأسئلتها كلما قام بزيارة إلى المزرعة التي ابتاعها والده في غور الأردن، بعد استقالته من عمله في السعودية واستقراره في عمان.. فمنذ أن عرفت مريم بحكاية جميلة، وقراءة فاتحتها، أقامت عداوة معها بلا سبب،

واعتبرتها ضرة لها قبل أن تراها.. وكثيراً ما افتعلت مشاكل مع زوجها يوسف لتعرف إذا كانت جميلة رفضته أم هو الذي رفضها؟.. تتمارض، وتراجع الطبيب، وتلتجئ إلى الحبوب المهدئة والمنومة.

وإذا كان يوسف قد نسي الأشياء الكثيرة مع مرور الأيام، فإنه لم ينس تصرفات والده الذي هجر والدته، وتركها سنوات عديدة في عمان، بينما اصطحب معه زوجته جميلة لمدة تزيد على العشرة أعوام، ما زاد في توتّر العلاقة الأسرية، وتساءل في دخيلته "كيف هان الود على والده وتزوج من امرأة ثانية على والدته!".. وراح يستعيد في ذاكرته بمرارة وغضب تلك الأيام التي قضاها مع والده أثناء عمله معه في السعودية، كانت جميلة ترافق والده، وكان يوسف يفكر فيما يفعله معها، بعد أن غرست في ذهنه أنها ما قبلت بوالده جاسر الفهد إلا لتنتقم منه، لأنه تركها بعد طلبها وقراءة الفاتحة.

لم يكن بمقدور يوسف أن يترك جميلة تفلت بما قالته، وتساءل في دخيلته عن أفضل شيء لإقناعها بأنه لا يكن احتراماً لكرامة المرأة التي على شاكلتها، يفوق ما يكنه والده من حب لها.. لو كان بمقدوره أن يتجرأ ويقول شيئا بوجهها، لقاله منذ اليوم الأول.. فهو يعرف أنه ليس نداً لها.. كما يعرف

أن مشكلته في الجانب المرجوح الكفة.. كان بوده أن يخبرها بكل جرأة أنها لا تثير فيه أدنى اهتمام، حتى يجعلها تحس بالأسف لما أقدمت عليه حين وافقت على الزواج من أبيه.. ومع أنه كان يحدث نفسه بهذا، إلا أنه كان يشعر أن قراراته واهنة، ولم تخطر على باله خطة معينة يتبعها بعد.

كثيراً ما تمنى يوسف عودة أبيه لأمه، لكن إدراك عجزه أثار فيه شعوراً مريراً بالإحباط، ولم تكن والدته لتقتنع أن زوجها تزوج عليها.. فكلما أبدت ضيقها من وجود ضرتها، زاد والده إصراراً على حب زوجته جميلة.. وسرعان ما أدرك يوسف رغبة أبيه الخفية في جعله مشاركاً معه في حب جميلة أكثر من أمه.. وكان يردد على سماع يوسف أنه يتمنى أن تعود أمينة إلى عقلها، وترضى بالأمر الواقع، وتفكر ملياً أن زوجها تزوج من امرأة أخرى، وتعيش الواقع والمكتوب لها.

كانت الذكريات تمخر في رأس يوسف مثل أمواج البحر الهادرة، وعندما عاد لحاضره، وتذكر "أحلام"، برر تصرفاته، بأن زوجته مريم لا تدرك ماذا حدث له، ولو وجد الحب الذي كان يبحث عنه بين أحضانها، لما نظر إلى امرأة أخرى.. أمّا والده فكانت كل السبل متوفرة له، وكان غارقاً في سعادة الحياة الزوجية، عندما اختار طريقه الوعر.

***

أحلام

ذات صباح ممطر، توقفت سيارة أجرة صفراء اللون أمام شركة ماجلان لتجارة الهواتف الخلوية، وترجّلت منها سيدة أسدلت على رأسها شالاً أسود.. تمعنت في اسم الشركة وأسرعت تلجها قبل أن يبللها المطر.. جالت بنظرها على المعروضات، واستقر على يوسف الذي كان مشغولاً بتدقيق أوراقه، هندست هندامها، وأخذت تتأمل الهواتف المحمولة المعروضة في الفاترينة، قالت بعد فترة صمت أنها تبحث عن

هاتف نقال فيه كاميرا بدل الهاتف القديم الذي تحمله.. ووضعت الهاتف الذي كان بيدها على المنضدة أمام يوسف.

هب يوسف واقفاً، ارتبك وأصابته الدهشة، أجال نظره بينها وبين صهره عماد سلوم الذي كان واقفاً يتأملها، وقال باضطراب متجاهلاً معرفتها: كل الهواتف الحديثة تحتوي على كاميرات.

قاطعته: الطقس بارد، هل تسمح لي بالجلوس!

وقبل أن يجيب، غمزته بطرف عينها، وجلست على مقعد قريب، وأضافت بصوت خافت "أنت تعيش برفاهية، وغيرك يتعذب".

رجفت يده وتعرق جبينه وهو يقدم لها هاتفاً حديثاً.. لامست أصابع يدها يده وهي تتناول الهاتف المحمول منه، وراحت تنقل نظراتها بين الهاتف وبينه، وقالت بصوت منخفض "يا لغبائك.. أنا كنت أختبر مشاعرك".

تجاهل ما سمع وسألها: ما رأيك بالهاتف؟

قالت بصوت مسموع: لا يهم رأيي، المهم ثمنه.

نظر يوسف إلى عماد ثانية، وطلب منه أن يحضر بعض الإكسسوارات من المستودع.. رمق عماد السيدة بنظراته،

وخمن أن يوسف يصرفه من المحل بلباقة.. وما إنْ خلا الجو لهما حتى قال يوسف: كيف عرفتِ المكان؟

قالت بدلال: لا تستطيع أن تهرب مني طوال الوقت، ومن يسأل لا يتوه.. ما إنْ قلت لسائق التاكسي عن اسم الشركة ومكان وجودها حتى عرف موقعها.

نظر ثانية نحو الباب، أضافت: نسيتني بسرعة، وبادلت قلبك بحجر.

تلعثم وقال أنه لم ينسها، وكان يفكر بزيارتها.. ورجاها أن تغادر المكان قبل أن يعود عماد..

قاطعته: نفذ صبري، وأنت لا ترد على الهاتف.. وأضافت: سأنتظرك الليلة، وإذا لم تأت فلن تراني أبداً.

شعر بارتياح وتنفس الصعداء ما إنْ غادرت المكان، جلس على مقعده وأشعل سيجارة، راحت صورتها تكبر أمام عينيه من جديد.. سرت قشعريرة في جسده، وتملّكه شعور أن قلبه يخفق بحبها مهما حاول الابتعاد عنها، تمنى لو ينقضي النهار بسرعة حتى يلتقيها ثانية، وأكّد لنفسه أنها استولت على قلبه منذ اللحظة التي شاهدها فيها قبل أكثر من ستة أشهر، وأنها فتاة أحلامه التي كان يحلم بها منذ زمن بعيد.. أغمض عينيه وراح يستعيد لقاءه الأول معها..

(كان الوقت مساء، وكان يوسف عائداً إلى بيته في عمان بعد قضاء بعض أعماله التجارية في مدينة الزرقاء، استوقفه سائق يوقف سيارته على جانب الشارع، وطلب منه المساعدة بنقل الراكبتين اللتين يقلهما من بغداد إلى أقرب فندق في عمان، بسبب عطل ميكانيكي في مركبته.

لم يتردد يوسف، وتبيّن له من حركات إحدى الراكبتين أثناء

صعودها سيارته أنها فتاة في مقتبل عمرها، بينما تدثرت المرأة الأخرى بعباءة سوداء، وبدت متعبة، وجلستا في المقعد الخلفي.

جلس في مقعده خلف المقود، أضاء مصباح السيارة الداخلي وسار بتمهل، والمرأة المسنة تحدثه عن متاعب السفر، وعن مرضها الذي دفعها للقدوم مع ابنتها إلى الأردن للعلاج، ولم يتسن لها العلاج في بغداد بسبب الحوادث والفوضى التي أفرغتها حرب الخليج الثانية وغزو قوات التحالف للعراق.. بينما راحت الفتاة ترقب الشارع، وقد لاذت بصمت عميق.

وقرب أحد الفنادق في شارع الملك طلال وسط عمان أوقف سيارته، ثم قام بحجز غرفة بسريرين لهما، وقبل أن يغادر الفندق شكرته والدة الفتاة التي قالت أنها تُدعى "أم سعد"،

وبدوره ناول ابنتها بطاقة دوّن فيها اسمه ورقم هاتفه المحمول، نظرت الفتاة إلى البطاقة، وبادلته نظرات سريعة ومضطربة، الأمر الذي لم يستطع تفسيره أو تعليله.. وتملّكته الدهشة حين تبين وجهها بوضوح.. كان وجهاً غضاً طرياً، تزينه عينان خضراوان وأهداب طويلة كأنها مكحولة، ذات أنف صغير مدبب، وفم بشفة سفلى ممتلئة، وقدّر أنها لا تزيد عن العشرين من عمرها.. نظرت إلى وجهه مباشرة وقالت "شكراً، أتعبناك معنا، وأرجو أن نراك ثانية".

عاد يوسف إلى بيته مساء ذلك اليوم وصورة الفتاة تتراءى أمام ناظريه، ولعدة أيام ظل يستعيد نظراتها المضطربة وجمالها، وفي ظهيرة اليوم الخامس، أقنع نفسه برؤيتها ثانية بحجة الاطمئنان على والدتها المريضة.

رحّبت به أم سعد، وقالت إن ابنتها "أحلام" ذهبت تبحث عن عمل، وعن شقة رخيصة بدل هذا الفندق، وطلبت له فنجان قهوة.

بعد أكثر من نصف ساعة، عادت أحلام، كانت ترتدي بنطالاً ضيقاً من الجينز الأزرق، وقميصاً أحمر اللون، وبدت ملامح التعب واضحة على وجهها، ابتسمت له ما إنْ رأته وقالت بدلال: كيف خطرنا على بالك وجئت!..

قاطعتها والدتها: والله إنه ابن حلال، كنت أفكر في الاتصال به حتى يدلنا على مستشفى رخيص.. وسألته إذا كان يعرف أحد المستشفيات؟ فأجاب أنه يعرف مستشفى في جبل عمان، وأنه على استعداد ليأخذها إليه.

شعر بالزهو والاعتزاز وأحلام التي تؤطرها رائحة عطر الياسمين المميز، تصعد إلى جانبه في سيارته فضية اللون كورية الصناعة.. واستولى عليه القلق وهو يقترب من المستشفى، واختلط الفرح بالخوف من أن يراه أحد معارفه.. وفي المستشفى بدت كلماته مع أحلام متقطعة ومبهمة.. وما لبث بعد قليل أن استجمع نشاطه، وشعر بالراحة والهدوء عندما اختفت أحلام مع والدتها داخل الدهاليز والعنابر في المستشفى.

بعد دقائق عادت أحلام وحدها، قالت أنها تركت والدتها عند الطبيب لإجراء الفحوصات اللازمة.. اقتربت منه، وسارا نحو البوفيه دون أن ينطق أحدهما بحرف.

طلب فنجاني قهوة، وجلس يتأمل صفحة وجهها، وهي تداعب يديها بخجل على المنضدة، وارتجفت وهي تهم برفع الفنجان إلى شفتيها.. تمنى لو يعرف ما يجول بخاطرها، حدث نفسه "سبحان الخالق، ما أجمل هذا الوجه".. وتساءل إذا كانت

هذه النظرات هي بداية علاقة جدية أم لحظة عابرة!.. شعر بقلبه ينتفض مثل عصفور صغير يحاول الطيران.. تجرأ ومد يده حتى لامست يدها.. غرقت في داخلها لثوان معدودة، وانبسطت أسارير وجهها مثل سماء صافية، ثم سحبت يدها ببطء، وتشاغـــلت بالنظـــر إلى والـــدتها التي ظهرت في الممر قادمة.. سألتها أحلام "خير إن شاء الله؟".

ردت والدتها بصوت حزين ومتعَب بأن الطبيب يشك بوجود حصوة في الكلية، والنتائج تظهر بعد صور الأشعة، وأخذت تتذمر قائلة بأنها لا تملك أجرة الفندق، فكيف يتسنى لها أن تدفع ثمن العلاج في المستشفى؟.. قالت أحلام إنها تعرفت على صاحبة صالون تجميل، وطلبت منها أن تقابلها مساء ذلك اليوم.. ونظرت إلى يوسف وتابعت بابتسامة وزهو "أنا درست التجميل وأحمل شهادة فيه".

سألها: أين يقع الصالون، أنا مستعد أن آخذك إليه.

ابتسمت وقالت: المهم أن أوصل أمي إلى الفندق حتى تستريح، ثم أذهب بسيارة أجرة إلى الصالون في الصويفية، لا أريد أن أتعبك معي.

لكن يوسف أصر على رأيه، ولم يذهب إلى الفندق.. وفي الطريق استغرب معرفتها بالشوارع التي تؤدي إلى الصالون في منطقة عمان الغربية، فقال مازحاً:

- كأنك تعرفين هذه المنطقة أكثر من أهلها!

قالت أحلام أنها لم تترك مكاناً إلا وسلكته وهي تبحث عن عمل، فحفظت أماكن عمان وشوارعها عن ظهر قلب.. تعرفت على الشميساني ومنطقة عبدون، كما تعرفت على جبل عمان واللويبدة وجبل الحسين..

وفي شارع عريض يتوسط بنايات شاهقة وسط منطقة الصويفية، يضم أسواقاً تجارية فخمة تتلألأ فيها الأضواء مثل مهرجان كرنفالي،

تنوعت فيه المحال التجارية، وزينت أبواب المحلات الملابس الرجالية والنسائية من أحدث الموديلات.. طلبت أحلام منه أن يوقف سيارته في أحد المواقف قرب الصالون الذي تنشده.. وعندما ترجلت من السيارة، راح يرقب حركاتها وهي تتمشى برشاقة تجاه الصالون، وحدث نفسه إذا كان أخطأ أم أصاب عندما ألح في سؤاله عن عنوان الصالون.. وخمّن أنها كانت تنوي أن تعود معه بمفردها بعد أن تعيد والدتها إلى الفندق.. وعندما استعاد في ذاكرته جملتها الأخيرة، شعر ببلاهته فعلاً.

بعد أكثر من عشر دقائق وهو ينتظرها بفارغ الصبر، خرجت من الصالون.. وقفت قرب واجهته الأمامية، وأخذت تتأمل صورة العروس الكبيرة التي تغطي زجاج الواجهة، ثم ابتسمت ولوّحت له بيدها، وأسرعت نحوه، صعدت جانبه وقالت: وجهك حلو علينا.. واقتربت منه حتى شعر أن وجهها سيلامس وجهه.. اندفع الدم في عروقه وابتعد خجلاً ملتصقاً بباب السيارة، أضافت

وهي تنظر إلى والدتها في المقعد الخلفي: خلاص يا ماما، هانت.. غداً أستلم العمل وآخذ سلفة، وتعملي العملية عن قريب بإذن الله.. ثم نظرت إلى يوسف وأضافت: بهذه المناسبة أنا عازمتك على كأس عصير.. قاطعها وقال: بل أنا أدعوك مع والدتك لتناول العشاء، وآمل ألا ترفضي الدعوة.

ومع أنها ترددت، إلا أنها قبلت الدعوة، وتناول ثلاثتهم البيتزا في مطعم قريب، ثم راحوا يتمشون في الشارع ويتأملون المعروضات في المحال التجارية، ويتبادلون الحديث حتى منتصف الليل، وقبل أن يصعدوا السيارة أعربت أحلام عن سعادتها، وقالت أن تلك الليلة من أسعد أيام حياتها.

في طريق عودته إلى بيته بعد أن أعاد أحلام ووالدتها إلى الفندق، ساورته أفكار شتى، وخشي أن تكون أخباره قد تسربت لزوجته مريم، ومع أنه احتاط للأمر فيما إذا سألته عن سبب تأخره عن البيت، كأن يقول لها أنه التقى بصديق قديم مغترب مع زوجته، وأخذ يتجول معهما ويعرفهما على معالم عمان.. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث، فلم تسأله عن سبب تأخره، كما لم يحتج إلى سرد تلك القصة الملفقة.

ومع أن نداء خفياً كان يدفعه لرؤية أحلام ثانية، إلا أنه كان يقاوم رغبته، ويحدث نفسه بالابتعاد عنها.. وتساءل في دخيلته.. "أهو الحب، أم المراهقة الثانية التي تلازم المرء بعد

الأربعين من عمره! أم هي فتاة الأحلام التي كان يحلم بها منذ صغره ولم يظفر بها!".. وحاول أن يقنع نفسه أن زوجته مريم لم تكن فتاة أحلامه في يوم ما، لكنها الوحيدة التي استولت على تفكيره لفترة من الزمن، أوقعته في شباكها، واعتقد أنه هو الذي أوقعها في شباكه.. وتذكر ما روته له والدته بعد زواجه من مريم بسنوات عدة.. قالت "بعد أن ابتاع جاسر الفهد قطعة أرض في ضاحية الياسمين، وأقام عليها بناية مكونة من أربعة طوابق، وأعد فيها شقة لكل ولد من أولاده، جاءتها مريم ذات صباح برفقة والدها، تجولت في أنحاء البناية، وأخذت تقارن بينها وبين بيت أبيها الذي تقيم فيه، المكون من حجرتين فقط، ويضم بين جوانبه أسرة مكونة من سبعة أفراد.. يومها نظرت إلى الأعلى وطلبت من الله أن يحقق رغبتها بزواجها من يوسف، لتكون أول من يمتلك شقة في تلك البناية"..

"ما هذا الهذيان".. قال في سريرته، وتناول هاتفه المحمول الذي غيّر رقمه، ونظر إلى صورة أحلام على شاشته، وابتسم لخاطرة مرت في ذاكرته، بعد أن التقط لها الصورة دون أن تشعر أثناء جلوسها معه ترتشف القهوة في المستشفى.

مر أكثر من عشرة أيام قبل أن يعاوده الشوق ويتصل بها، فقالت بصوت حزين:

- لماذا لا ترد على الهاتف! منذ عدة أيام وأنا أحاول الاتصال بك..

قاطعها وسألها عن حالها وحال والدتها، أجابت أنها أخذت مبلغاً من صاحبة الصالون تحت الحساب، واستأجرت شقة صغيرة في جبل عمان، وأن والدتها عملت العملية وعادت إلى بغداد.. وعندما سألها عن عنوان الشقة قالت أنها ستبعث له "مسج" بالعنوان، ودعته لزيارتها إذا رغب في رؤيتها، وأغلقت الخط.

***

مساء اليوم التالي، قام يوسف بزيارة أحلام في شقتها قرب الدوار الثالث في جبل عمان.. رحبت به، وتحدثت عن وحدتها وعن الفراغ الذي يلفها بعد عودة والدتها إلى بغداد.. وبعد أن قدمت له القهوة، حاصرته بنظراتها وبرائحة عطرها، وهو يقدم لها سلسلة ذهبية فيها قلب حب.. ويبدي إعجابه بها.. أحنت رأسها دلالاً، واندفعت إلى النافذة المطلة على جامع أبو درويش الذي يتربع على قمة جبل الأشرفية، وأعربت عن سعادتها بجمال عمان ليلاً.. قام ووقف بجانبها، تسللت يده وأمسك يدها، نزعتها منه بلطف وقالت:

- أرجوك لا تغضبني..

تراجع وعاد إلى مقعده، تأمل قوامها جيداً، ثم حوّل نظره إلى النافذة وتظاهر بالتفكير، نظرت إليه وأضافت بلهجة غنج

عراقية ناعمة: أرجوك لا تغضب مني، أنا أعرف ما يدور في رأسك.. وجلست قبالته تحدثه عن والدتها.. وأمضيا فترة من الوقت في حديث متقطع.. وفي أعماقه شعر أنه يفتقد الجرأة وشجاعة الحديث، خشية أن يفقد أحلام إن هو ألح فيما تطلب منه رغبته وأفكاره.. ومع ذلك بقي مطرقاً يفكر فيما ستصل إليه هذه العلاقة، وقال يحدث نفسه "لا يمكن أن نستمر على هذه الحال".. ثم نظر إليها وقال:

- سجلي رقم هاتفي الجديد، لكن أرجوك لا تتصلي بي ليلاً، فهذا يجلب لي متاعب بيتيه.

قالت بدلال: هذا أمر بسيط، لكن أخبرني لماذا أغلقت هاتفك في الأيام السابقة؟

صمت لحظة، قال: لا أدري إذا كان الهاتف ضاع مني أو سُرق..

شعر من خلال نظراتها أنها لم تصدقه، رغم أنها تظاهرت بصدق ما قال، أضاف:

- وأريد جواباً صريحاً منكِ، هل أستطيع زيارتك في البيت؟

ابتسمت وقالت: هذا طلب صعب وغالي الثمن.. وتابعت بدلال "إن دخولك البيت خطر عليك وعليّ".

راوده شعور أنها تتمنّع ولا تمانع.. قال:

- فكّرت كثيراً في الأمر، وشعرت أن من واجبي أن أمد لك يد العون وأساعدك.

ابتسمت ثانية ونظرت إلى وجهه مباشرة وتساءلت: أهذه رغبتك فعلاً**!؟**

لم يُجب، أشاحت بوجهها وأضافت بدلال: أنت تكذب عليّ يا يوسف.. اتركني وشأني وسأتدبر أمري.. ثم لا تنس أنك متزوج وعندك أولاد.

شعر أنه يقف على حد السيف، ولم يبق أمامه غير الاعتراف بما في دخيلته، قال: صحيح أنا متزوج وعندي أولاد، لكن هذا لا يُنقص من إعجابي بكِ.

نظرت إليه ثانية وقالت:

- أنا أعرف ما بنفسك، هذا واضح من خلال تصرفاتك معي، كما أني أعجبت برجولتك ووقوفك معي ومع أمي منذ أن التقينا، وأتمنى أن تبقى قريباً مني، لكن ما فائدة هذا الإعجاب، وما هي نتيجة هذه العلاقة**!؟**

لم يجب، وساد الصمت بينهما للحظات.. فجأة أخفت وجهها بين راحتيها وقالت "اذهب واتركني وحدي الآن، إن زوجتك تنتظرك في البيت".

***

أيام طويلة مرت بعد ذلك اليوم، شعر خلالها أنها استولت على تفكيره وعلى حواسه، وكثيراً ما تقلب في فراشه وازداد

خفقان قلبه، وكلما همّ بالاتصال بها، كانت تتراءى له زوجته مريم وبقية أفراد أسرته أمام عينيه، فيغلق هاتفه وينكفئ على نفسه، متذرعاً أنها سحابة صيف مرت في حياته.

"سمعتي وعملي وعائلتي لا تسمح لي بعلاقة جديدة".. حدث نفسه ثانية، وحوّل رقم هاتفه المحمول إلى رقم خاص، ومرّ أكثر من شهر قبل أن تقوم بزيارتها المفاجئة إلى محله.. جاهد خلال ذلك السيطرة على أعصابه، وحاول أن يخفي اضطرابه وشرود فكره أمام زوجته، إلا أن نداء خفياً كان يلح عليه ويطالبه بالذهاب إليها تلك الليلة.

***

تلك الليلة جلس يوسف قبالة أحلام، وأطال النظر إليها وهو يتأمل بشرتها البيضاء، لامته على هجره، وبكت.. اعتذر، وفي دخيلته أحسَّ بالندم حين فكر بالابتعاد عنها.. أخذ قلبه ينبض، وأحس بشبابه يعود إليه وكأنه شاب في عمر المراهقة.. اندفع وقبلها من شفتيها، لم تمانع، وبادلته عواطفه وقبلاته بأشد منها، لكنها لم تستسلم له.. فجأة ابتعدت عنه وغرقت في دموعها، وقالت: لم أعد أستطيع الصبر، وإذا أردت شيئاً مني فخذه بالحلال.

صمت لحظة وكأنه أصيب بالخرس، أضافت: أعرف أنَّك متزوج وعندك أولاد، وإذا كنت لا ترغب بالزواج مني، فاتركني وشأني، ولا تدعني أراك ثانية.

نظر في وجهها مباشرة والدموع تملأ عينيها وقال: أنا أحبك ومستعد لكل شيء.

نظرت إلى أرضية الغرفة حيث موضع قدميها وقالت: أرجوك لا تتسرع في قرارك، فأنت لا تعرف عني شيئاً بعد..

قاطعها: لا أريد أن أعرف، وانسي الماضي.

قالت: وإذا أخبرتك أني كنت متزوجة قبل أن أعرفك.

صمت ثانية.. أضافت: أرغمني والدي على الزواج من قريب له قبل سنتين، وبعد الزواج بشهرين تعرض زوجي لحادث ومات على الفور.

قال: أنت أرغمتني على سماع الماضي، مع أني لا أريد سماعه، ومع ذلك أنا لم أغير رأيي..

قالت بدلال: شرط أن لا تهجرني ثانية، وتُخلص في حبي.

ابتسم وقال: وأنا لن أغادر هذا المكان قبل أن نذهب إلى المحكمة الشرعية ونعود زوجين على سنة الله ورسوله.

****

عفاف

جاوزت عفاف يوسف الفهد ربيعها التاسع عشر.. وراح الخطاب يتوافدون على بيت أبيها، جلهم أبناء رجال أعمال وأثرياء، يحظى أغلبهم بإعجاب والديها، لكنها لا تكترث بأي منهم.. الشخص الوحيد الذي تحلم به هو ذلك الذي يحمل شهادة جامعية ويعمل في وظيفة حكومية.. فهي طالبة جامعية تتابع دراستها في إحدى الجامعات الخاصة، بالإضافة إلى ما تتمتع به من جمال باهر وقوام رشيق.. ولم تكن هناك فتاة أجمل منها في ضاحية الياسمين التي امتلأت بالعمران والبنايات الحديثة، بعد أن نزح إليها آلاف الأردنيين أثناء وبعد حرب الخليج الثانية، وصارت تعج بأمشاج من البشر، بعد أن كانت فارغة وأرضاً جرداء.

ومثل أي رجل بدأ والدها يوسف يفكر بمستقبلها، دار في ذهنه أن ابنته تطرد الخطاب بطيشها وتفكيرها البعيد.. تساءل "متى يأتي هذا الشاب الذي تحلم به"!.. حدثها ذات مساء بحزم كي تقرر وتختار، أخبرها أنه سيختار لها العريس المناسب بنفسه، ويرغمها على الزواج إن هي لم تفعل ذلك بإرادتها..

انخرطت في البكاء وطلبت منه التريث، قالت إن لديها متسعاً من الوقت، ولم تكمل دراستها الجامعية بعد، والله يعلم كيف ستكون حياتها في المستقبل، وأي رجل سيكون زوجها؟

توقفت نظراته عند دموعها، نظر إلى وجهها الحزين وتأثر، همس كأنه يحدث نفسه "حقاً ما زال الوقت مبكراً، وستجد عريساً يناسبها بعد تخرجها من الجامعة".. لكن الأقارب والجيران لم يتركوها في حال سبيلها، راحوا يتهامسون ويقولون أن عفاف متكبرة، وأنها تنتظر عريساً يأتيها على حصان أبيض.. وأخذوا يتنبأون قائلين "من يطيل زمن الاختيار يحصد الأسوأ في النهاية".. ويبدون آراء أخرى متشابهة.. فالعادة في العائلة أن تتزوج البنات في سن مبكرة قبل أن يفوتهن القطار، وقبل أن تصل إحداهن سن العنوسة، وهو العشرين من عمرها، بالإضافة إلى أنها لا تُستشار في أمر العريس كما يفعل والدها معها.

***

ذات صباح، وأثناء صعودها إلى الحافلة التي تقلها إلى الجامعة، تنبهت لأحد الأشخاص يرقبها، ويطيل النظر إليها، رجل في العقد الرابع من عمره، طويل القامة، وجهه أسمر

محروق بفعل أشعة الشمس، وعينان جاحظتان بين جفنين علتهما كتل زرقاء فحمية جراء احتباس الدم تحت الجلد، وذقن مدبب نبت فيه شعر أسود مثل الشوك.

ارتعدت وصعدت مذعورة داخل الحافلة وصورته تلاحقها، ومع أنها تناست الموضوع ذلك النهار، إلا أن وجهه ظهر لها ثانية مثل كابوس في أحلامها.. فقد شاهدته أكثر من مرة يتتبع خطواتها، ويلاحقها إلى كل مكان تذهب إليه، وكأنه ظلها، فتمارضت ليومين متتاليين، ولم تخرج من البيت، ومع ذلك شاهدته يرقبها، ويتمشى أمام البيت خلال فترات متقطعة.

وهمست إحدى زميلاتها حين لاحظت تتبعه لها بأنه عاشق، وقالت أخرى إنه متخلف.. أما عفاف فقالت تبرر موقفها أنها لا تعرفه، ولا تعرف لماذا يلاحقها.. وأضافت "إنه غريب الأطوار.. إنسان غير طبيعي، لو أنه يتكلم على الأقل.. إني أخاف منه وأحس بفزع حين أراه قريباً مني، يكاد يصيبني دوار وهو ينظر إليّ".

وعندما اقترحت إحداهن أن تخبر والدها بأمره، فزعت وقالت:

"وماذا يقول الناس إن تعرّض له بسببي، سيقولون ويتقولون ويلفقون الشائعات".

وقالت أخرى "يقول الجميع إن نظراته لا تبشر بالخير، وإن عينيه تَجلب الأذى والحسد".

ودافعت عنه أخرى بقولها "يجب أن تعذروه، فماذا بوسعه أن يعمل إزاء هذه الغلطة إذا كانت قد ولدت معه.. مثل هذه العيون لها تأثير خاص على بعض الناس، لكن يجب ألا يخشاها الجميع".

ولاحظت النساء أيضاً وجوده في ضاحية الياسمين أكثر من مرة، فكنّ يشعرن بالخوف حين ينظر إلى أطفالهن، وكنّ يغطين عيون صغارهن بأكفهن حتى لا يشاهد الأطفال منظره، لكنهم في النهاية اعتادوا رؤيته، وارتفعت بين الفتيات أصوات تقول "إن وجهه لن يكون قبيحاً لو حاول أن يكون لطيفاً".. ومع ذلك لم تضع أي من صديقاتها اللوم عليه، وأخذن يعتقدن أن عفاف تشجعه على ملاحقتها.. لكن عفاف كانت تخشاه وتتجنب النظر إليه، حتى لا ترى في إحدى الزوايا عينيه تحدقان بها.

***

ذات يوم، وبينما كن رفيقاتها يتهامسن، قالت لهن حتى تقطع الشك باليقين، وتُخرس ألسنتهن "صدقنني إذا تقدم لي أي

خاطب سواء كان فقيراً أم غنياً، وسيماً أو قبيحاً، فإنني سأقبله في الحال، شرط أن يأخذني من هذا الحي الذي أقيم فيه".

عاتبتها إحدى صديقاتها المقربات، قائلة:

- ما الذي يدور في خلدك؟.. هل لديك مصاعب في البيت حتى اتخذت مثل هذا القرار وبهذه السرعة؟

أجابت: لا، لكني لم أعد أحتمل هذا الغريب في الحي.. إنك لا تتصورين مدى انزعاجي من جراء ملاحقته.. لم أعد أستطيع النوم أو الدراسة..

قاطعتها: ولكن لِمَ لا تمنعيه من ملاحقتك! وتوقفيه عند حده؟

- وهل تعتقدين أني لم أفعل ذلك؟.. لقد قلت هذا على مسمعه، لكني لم أجرؤ التحدث إليه مباشرة.
- وهل سمع ذلك؟
- سمع ولم يكترث، شعرت أن كلماتي تسقط عليه وكأنها الندى..

احتدت صديقتها وقالت: ماذا يظن نفسه!..

- أشعر أنه مجنون، لكني متأكدة أنه سيلقى ذات يوم ما يستحقه.. وهمست وكأنها تحدث نفسها: آه لو أن الله يخلصني من هذا "الغريب" الذي غيّر طعم حياتي.

***

أيام قليلة مرت، وصلت بعدها امرأة غريبة عن الحي تناهز الأربعين من عمرها إلى بيت يوسف، شربت القهوة وتحدثت مع زوجته مريم عن هذا وذاك، وعما تعرفه عن أولاد وبنات الأصول، إلى أن أظهرت لونها الحقيقي، وطلبت أن ترى ابنتها عفاف، بعد أن سمعت عن جمالها.

قالت أن شقيقها حصل على بعثة لمتابعة دراسته الجامعية في أمريكا، وأنه يرغب في زوجة صالحة تقيه الوقوع في الشبهات، وشرطه أن توافق العروس على السفر معه حتى يكمل دراسته.

رحّبت مريم بها، وقالت أنه ليس لديها اعتراض، لكن الأمر يرجع لعفاف وأبيها، ولا بد من موافقتهما، وأضافت أنها ستبلغها الجواب بعد يومين.

لم تُبد عفاف أي اعتراض، كما لم توافق، وقالت لوالدتها أنها لا تستطيع أن تقرر قبل مقابلته.. وعندما استشارها والدها في الأمر، أجابت "كيف أوافق على شخص لم أقابله ولم يقابلك!"..

بدا غريباً أن توافق ابنته على الزواج قبل أن تكمل دراستها الجامعية، فعلّلت موافقتها بأن الزواج لا يوقف متابعة الدراسة، المهم أن يكون الرجل فاضلاً ويتحمل مسؤولية الزواج.

وقالت والدتها بعد أن خرج يوسف من البيت، إن ما يسعدها أنه لن يكون لها حماة ولا بنات عم، "وستكونين ربة البيت وحدك.. لكن ما يؤسفني أنك ستسافرين إلى الخارج".

- آه يا ماما.. تتكلمين وكأن كل شيء على ما يرام.. أليس من الواجب أن يأتي العريس أولاً يقابل والدي، نتعرف عليه وعلى والديه وذويه.
- قالت شقيقته أنه شاب مثقف، وينوي متابعة دراسته في الخارج.
- ليس هذا المهم يا أمي، المهم أن أخلص من هذا المجنون الذي يلاحقني من زاوية إلى زاوية..
- اسم الله عليك يا ابنتي، أي مجنون هذا الذي تقولين عنه؟
- هذا الغريب صاحب العينين الجاحظتين الذي ظهر في الضاحية منذ مدة.
- ما لك وما له؟.. إنه لن يستطيع أن يمس شعرة من رأسك.

فجأة أخذت عفاف تجهش بالبكاء، وقالت أنها لم تعد تشعر بالأمان طالما هو في الحي، وأنها ما وافقت على فكرة العريس إلا من أجل الخلاص من رؤية الغريب.

- ولماذا لم تقولي هذا من قبل! كنت أخبرت والدك عنه وتركته يتصرف معه.
- لا تتعجلي يا أمي، أنا سأخبر والدي بعد أن تأتي الجاهة ونقابل العريس.

لكن مريم لم تنتظر الجاهة، فما إنْ غادر زوجها يوسف البيت إلى عمله صباح اليوم التالي، حتى أسرعت إلى بيت الحاجّة أم حسن، وأفشت لها ما قالته ابنتها عفاف، وعن المخاوف التي تلاقيها من ملاحقة الغريب لها..

قالت أم حسن أنها سمعت به من نساء الحي، وشاهدته أكثر من مرة.. وطمأنتها أن كل شيء سيسير حسب طلبها، وأعطتها حجاباً لتعلّقه عفاف في رقبتها، وأوصتها أن لا تريه أو تعطيه لأحد.

عند الغروب وفي نفس اليوم، وبينما كانت عفاف تجلس على مقعد هزاز في حديقة منزلها، شاهدت الغريب يقف غير بعيد عنها خارج السور.. اندفع الدم إلى وجهها، وسارعت إلى داخـــــل البيت وكأن ناراً تلاحقها.

***

لم تمض سوى أيام قليلة، وصل بعدها إلى بيت يوسف مجموعة من الرجال والنساء يرتدون ثياباً خاصة بالمناسبات السعيدة.. وارتفعت أصوات تدعو لعفاف بالسعادة، وتردد متغنية بجمالها وحسن أخلاقها.

وكالعادة في مثل هذه المناسبات فقد كثر حديث النساء، ودار لغط حول هذه الخطوبة، كما ظهر شيء من الغضب ساور نفوس بعض الأمهات، لاختيار عفاف شاباً من غير الأقرباء.. أمّا الحاجّة أم حسن فقالت بأنه يحق للعريس أن يرفع رأسه، ما دام قد حصل على أجمل فتاة في ضاحية الياسمين.. وقالت إحدى صديقاتها:

- من المؤسف أنك ستتركيننا يا عفاف.. لماذا وافقت على الخطوبة بهذه السرعة؟

فجأة امتلأت عيناها بالدموع، ولم تنبس ببنت شفة.. ومع ذلك تمّت الخطوبة وتجمعت نساء الحي ورحن يغنّين ويرقصن..

وفي الحفلة أظهرت جميلة سعادتها، ورقصت مع مريم يداً بيد ووجهاً لوجه، وكشفت عن القلائد الذهبية في جيدها والأساور التي في معصميها لغاية في نفسها.. وفي نهاية

السهرة اختلت بمريم، وجلست تزم شفتيها وتقص عليها قصة زواجها من جاسر الفهد..

قالت جميلة إن الزواج قسمة ونصيب، وإنها رفضت الزواج أكثر من مرة خاصة عندما تقدم إليها "أحد الأقارب من الشباب الطائشين".. فهي تحب الرجل العاقل المتزن، صاحب الخبرة في الحياة، ولا مانع عندها أن يجمع الرجل اثنتين أو ثلاثة في داره، طالما ستكون هي السيدة الأولى في البيت.. وأضافت "إنّ جاسر الفهد قال صراحة لوالدها عندما تقدم لخطبتها تلك الليلة أنه لم يختر أم أولاده، والده هو الذي اختارها له، المرأة الوحيدة التي اختارها في حياته لم يهنأ معها، كان صغيراً ولم يكن يفهم معنى الحياة الزوجية.. أما هذه المرة، فهو الذي يختار، لأن أولاده جهلة لم يفلحوا في التعليم.. وأنه يرغب بالزواج بدافع تحسين النسل".

قالت أيضاً إنها فوجئت بهذا الطلب، وراحت ترقب جاسر الفهد وهو يجلس مع والدها، وكأنها تراه للمرة الأولى.. رجل بدين جاوز الثامنة والأربعين من عمره، متزوج وعنده أولاد، وهي ابنة التاسعة عشرة المدللة في بيت أبيها.. لم تستطع أن تتخذ قراراً بشأنه، ووجدت نفسها تتخبط في أفكارها وتبكي.. لكن والدتها أقنعتها أن عمان قريبة، ولا تبعد أكثر من ساعتين،

وأن "أبو يوسف" ثري، وستعيش معه مثل ملكة في قصر لا ينازعها فيه أحد.

أضافت جميلة أنها ترددت في البداية، لكنها وافقت على مضض، وعندما رافقته مع والدتها إلى سوق الصاغة، وابتاع لها كل ما تحتاجه من أساور وحلق وقلائد ذهبية، عرفت أنه رجل كريم، وستعيش معه حياة سعيدة.

تابعت "أقيمت الأفراح لثلاث ليال متتاليات، وفي اليوم الرابع سافرتُ معه إلى دمشق لقضاء شهر العسل في أحد الفنادق"..

فجأة هبّت مريم واقفة، وقالت بنبرة عصبية غاضبة: لم يبق إلا أن تقولي لي ما حدث لك على السرير أيضاً.. أنا مشغولة هذه الليلة، عندي تنظيف وما عندي وقت أسمع قصص فارغة، وأظن أنك نسيت أن تقولي "إنك أوقعتِه في حبائلك، وإنه تزوج واحدة أصغر من بناته".

ثارت جميلة، وخرجت وهي تقول أنها ما قدمت إلا لتشارك العائلة أفراحها.. وفي قرارة نفسها شعرت أنها نجحت في إغاظة مريم وتكدير صفوها تلك الليلة.

في الليل وبعد أن استلقى يوسف على سريره، أخذت مريم تعيد على مسامعه ما روته جميلة عن قصة زواجها من والده جاسر الفهد، وأضافت عليها من بنات أفكارها ما كانت تتصوره ويخطر على بالها لتغيظ زوجها، أو تدفعه ليعترف

بحقيقة ما حصل تلك الأيام، "هل رفض جميلة فعلاً أم هي التي رفضته؟".. إلا أنَّ يوسف لم يأبه لها، ولم يسمع كلمة مما قالته، وراح في سبات نوم عميق.

***

العاصفة

صباح أحد الأيام، نهضت مريم من نومها وتشاغلت بترتيب البيت.. فجأة رن جرس الهاتف المحمول.. أسرعت نحو الصوت، فوجئت بهاتف زوجها يرن، تساءلت في قرارة نفسها "كيف نسي هاتفه النقال في البيت، إذ ليس من عادته النسيان".. فتحت الخط، وقالت ألو.. لم تسمع جواباً، وقبل أن تغلق الهاتف سمعت صوتاً نسائياً يقول: أريد يوسف.

أجابت: يوسف خرج منذ..

وقبل أن تكمل جملتها أُغلق الخط.

وقفت مريم مشدوهة، تلاعبت برأسها أفكار شيطانية، وفي أعماقها اشتمت رائحة خيانة من ذلك الصوت.. فكثيراً ما سمعت عن حكايات وقصص مختلفة عن الخيانة الزوجية التي تبين مدى استهتار بعض الأزواج بحقوق زوجاتهم، وعدم احترامهم للعهود الزوجية.. وكانت تقنع نفسها أن سبب تأخر يوسف في الليل أو مبيته خارج البيت كثرة عمله، واتصالاته مع التجار ورجال الأعمال، كما كانت تعزو اضطرابه وتغيّر ملامحه إلى الإجهاد الذي لاقاه أثناء وبعد مرض أبيه.. حدثت نفسها بذلك واستبعدت فكرة الخيانة من جديد، ثم عادت وأكدت

لنفسها أن رائحة الخيانة تفوح من صوت المتحدثة.. عاودتها الشكوك وتلاعبت برأسها من جديد.. شبكة عنكبوتية دارت في رأسها، وخرمش العنكبوت أفكارها.. زمت شفتيها وتفحصت الرقم الذي ظهر على شاشة الهاتف، وترددت قبل أن تتصل به، وسرعان ما جاءها الصوت من الجانب الآخر:

- كنت أعرف أنك ستتصل يا حبيبي، لماذا تأخرت عليّ، تعال فأنا مشتاقة إليك.

لثوان معدودة ظلت مريم صامتة مذهولة، وسرعان ما انفجرت دفعة واحدة قائلة:

- أنتِ وقحة وما بتخجلي، ما هي علاقتك بيوسف؟

لم تجب المتحدثة، أضافت مريم: أخبريني ما علاقتك بيوسف يا قليلة الأصل.

وقبل أن تكمل جملتها، جاءها الرد سريعاً: أنت قليلة الأدب وقليلة التربية، أنا زوجته على سنة الله ورسوله. وأغلقت الخط.

ثارت مريم، أخذت تصرخ بأعلى صوتها، رددت بذهول وغضب.. "يوسف! يتصرف هذا التصرف! السافل، يحب أمرأة غيري!، ويتزوج!.. والله لأكدّر عيشته.. ولا بد أن أعرف هذه الساقطة التي تقول أنها زوجته".. وأسرعت إلى

الهاتف من جديد، طلبت زوجها على رقمه الخاص، وقالت بلا مقدمات:

- يا قليل الأصل، تحب غيري وتتزوج عليّ! أنا مش عاجبتك حتى تحب واحدة ساقطة مثلك وتتزوجها.

ولم تعطه فرصة الإجابة، عنّفته وأغلقت الخط قبل أن يتسنى له الدفاع عن نفسه، ثم اتصلت بشقيقها عماد، وقالت في ثورة غضبها أنها ستترك البيت بعد أن اكتشفت خيانة زوجها مع امرأة غيرها.

أسرع يوسف إلى بيته.. كان الباب مفتوحاً، وسمع مريم تصرخ بصوت عالٍ داخل حجرة النوم "أعذاره كانت كثيرة، وكان يجيد حبكها وصياغتها، يقول أنه تأخر في عمله، أو كان عند صديقه، وكنت أصدق كل ما يقول.. وبعد كل هذا أسمع بأذني من تسأل عنه وتقول أنها زوجته.. الخائن..

وقبل أن تكمل جملتها، دلف يوسف حجرتها، وقطع استرسال ثورتها، وكان صهره عماد يقف أمامها، رمقته بعينيها وقالت والغضب يملأ جوارحها:

- لك عين تأتي إلى البيت بعد الذي فعلته، اذهب إلى السافلة، خليها تنفعك وتشبع رغباتك.. وقبل أن تذهب تحقّق من سمعتك بين الناس.

وفي محاولة لتهدئة ثورتها الجامحة قال: عيب هذا الكلام، اجلسي لنتفاهم بهدوء.

أجابت بغضب: لا أريد التفاهم معك، خلي عماد يتفاهم معك بعد أن أترك البيت.. وأخذت تصرخ: لا أريد أن أراك، انصرف من وجهي.

همس وكأنه يحدث نفسه: لا يرحل الرجل عن بيت فيه ابتسامة أو يغرد فيه طائر فرح.

ردت بعصبية: الخيانة في دمك وأنت تبحث عن ذريعة للهرب.

وحتى لا تتفاقم الأمور، طلب عماد من شقيقته أن تهدأ، كما طلب من يوسف أن يتركها تلك اللحظة حتى يتدبر الأمر معها.. وخرج يوسف قائلاً:

- سأعود فيما بعد، لكن حاول إقناعها بأن كل ما قالته غير صحيح.. فأنا أحبها، ولا يمكن أن أخونها، أو أتزوج عليها.

رمقه عماد بنظرة غضب سريعة وقال: لا داعي للعتاب في هذا الوقت، اذهب الآن، وعد بعد ساعة زمن.

***

في الشارع وجد يوسف نفسه يقود سيارته على غير هدى.. تماوجت الأفكار داخل رأسه، وتخطّى رجلاً كاد يدهسه على

مقربة من الرصيف وهو يفكّر بما حدث.. "أحلام" كانت ملجأه ومقر راحته.. جلس متأففاً وقال: انكشف الأمر، وعرفت مريم بعلاقتنا.

تجاهلت أحلام ما سمعت، وجلست قبالته قائلة:

- وماذا تتوقع؟ عاجلاً أو آجلاً سينكشف الأمر.
- أعتقد أن هناك من وشى لها عن علاقتنا.

قالت بنبرة حادة: العلاقة شيء والزواج شيء آخر.

- اعذريني فأنا مشوش.

صمت لحظة، لم يعد باستطاعته الإفصاح عما في نفسه.. اضطرب عليه الأمر وراح يهذي في كلامه.. فاكتشاف مريم لزواجه من امرأة ثانية، صدمة ما بعدها صدمة.. "حدّث نفسه" وأضاف أنه لا يدري ماذا يفعل حيال هذا الأمر؟..

قالت: المعجبات بك كثيرات، ربما أرادت إحداهن أن تعبث بأعصاب زوجتك.. وحاولت أن تسري عنه.. فقامت وجلست بجانبه، والتصقت به مضيفة: عندي لك مفاجأة سعيدة تزيل عنك كل همومك..

تمعن في وجهها وقال: مريم لم تترك للفرح مكاناً في حياتي.

قالت: دعك من سيرتها، وخمّن ماذا أخبئ لك؟

لاذ بصمته ثانية.. أضافت والفرح يغمر وجهها:

- لقد راجعت الطبيب وقال أني حبلى.

كالصاعقة وقع الخبر على مسامعه.. تغير لونه وارتعش في جلسته وكأن أفعى لدغته فجأة.. زمت شفتيها وأضافت: كنت أعتقد أنك ستفرح بهذا الخبر.

قال: هذا لم يكن اتفاقنا، وأنتِ وافقت على عدم الحبَل.. وطلب منها أن تجهض الجنين في أسرع وقت.

قامت من جانبه وجلست على مقعد قريب، قالت إنه ليس ابن حرام، وذكّرته بالزواج الذي قيّدها به منذ أكثر من ستة أشهر، وإنها ما زالت تملك وثيقة الزواج الصادرة من المحكمة الشرعية.. وتشاجرا للمرة الأولى تلك الليلة.. قالت له بحدة:

- لست الوحيد في هذا العالم الذي تزوج من امرأة أخرى، فلماذا تخاف منها؟.. لماذا لا تكسر الحاجز النفسي وتُشهر زواجنا؟

لم يجب.. شعر أنه واقع بين لهبيْن، ولم يدْرِ كيف يتصرف حيال هذه المرأة التي وقع في حبها، وهجر مريم من أجلها ليقضي معها فترات سعيدة، وتساءل في دخيلته إذا كانت لم

تُقدر التضحية الغالية التي أقدم عليها حين أقدم على الزواج منها.

لم تيأس أحلام، حاولت إقناعه أن من حق طفلها أن ينعم بحياة كريمة في ظل والديه.. وراحت تُظهر له مفاتنها.. لكنه كان يُبحر في عالم من الظلام الدامس، فجأة انقض عليها يلطمها بيديه، يضرب بطنها بعنف ويركلها بقدمه.. صرخت وولجت غرفتها، ومع أنها عانت الكثير تلك الليلة، إلا أنها لم تُجهض، وتشبّث الجنين في رحم أمه.

بعد منتصف الليل قام وألقى عليها نظرة، كانت نائمة في سريرها ودموعها تنساب على وجنتيها.. عاد وجلس في الصالة، أرخى لتفكيره العنان، واستعرض في ذاكرته ما حصل له.. فكّر بداية في أولاده.. وتساءل يا ترى كيف شرحت مريم لهم الأمر!.. ومن الذي وشى لها عن هذه العلاقة؟

وحين أعاد سيرة حياته مع مريم.. لام نفسه عندما اعتقد أن الله ينتقم منه بسبب علاقته مع أحلام، لكن ما كان يؤرقه ويقلق مضجعه هو سمعته ومنزلته الاجتماعية أمام الآخرين.

وفي صباح اليوم التالي قرر أن يواجه الواقع، ويعود لأسرته.

***

كان كل شيء هادئاً على غير عادته.. جال ببصره أنحاء البيت، لم ير أحداً ولم يسمع صوتاً، ولج غرفة النوم دون أن ينبس ببنت شفة.. كانت الفوضى سائدة تخبره عن القصة كاملة.. ثوب النوم الخاص بزوجته لا زال موجوداً على السرير، باب الخزانة ما زال مفتوحاً، بعض الملابس ملقاة هنا وهناك بلا ترتيب.. وبينما هو يتأمل غرفة النوم، وإذ بصهره عماد يدخل البيت.. سأله يوسف: أين مريم؟

- تعال استرح في المجلس، سأتحدث معك. قال عماد.

دلفا المجلس.. وقبل أن يستريحا، ضمّ يوسف شفتيه ونفخ نفخة طويلة تدل على مدى حسرته وأساه، وسأل ثانية: أين مريم!

- في المستشفى.. أصيبت بصدمة عصبية وعاودها المرض، وجئت آخذ بعض الأغراض لها.
- وهل علم الأولاد بالأمر؟
- عرف الجميع، عفاف وبسمة وخالد..

ألقى يوسف بجسده على مقعد قريب، أشعل سيجارة، ونفخ دخانها بتأفف وقال: هذه مأساة..

قال عماد: أعتقد أن الذي انكسر لا يمكن إصلاحه، ومع ذلك سأحاول من جديد.. لكن ما قصتك أنت! ولماذا اختفيت طوال

الليل بدل أن تواجه زوجتك وتعتذر لها!. لقد حاولت أن أخلق لك عذراً، لكن يبدو لي أنك لا تستحق مريم..

قاطعه يوسف: هل صدّقت قصتها أنت الآخر!.. إنها تتوهم أشياء ليس لها وجود، تشك حتى في نفسها، وتلقي اللوم على غيرها.

نظر عماد إلى وجه يوسف الذي حاول أن يخفي ملامحه، وقال بنبرة هادئة: يمكن أن تقنع غيري بكلامك هذا، لكنك إنسان مخادع وكاذب أيضاً..

هبّ يوسف واقفاً وقال بحدة: لقد تماديت أكثر من اللازم، خذ الأغراض واخرج من البيت.

- البيت!.. وهل بقي لك بيت بعد أن دمّرت حياة شقيقتي بسبب طيشك وتصرفاتك، وأنت مشغول عنها بعشيقتك.. احمد الله إذا خرجت مريم من هذه الصدمة سليمة.. اذهب إلى المستشفى وألقِ نظرة عليها، إنها مريضة وتعاني..

قاطعه يوسف ثانية: إنها مريضة قبل أن أتزوجها، وأنت تعرف ذلك، وتعرف أنها تشكو وتتذمر دائماً ولا يعجبها العجب.

- دعك من هذا واخبرني أين التقيت بها، وكيف دخلتْ حياتك؟.. لا تكذب عليّ، فقد تبعتك وشاهدتك أكثر من مرة تدخل بيتها في جبل عمان.

أحسّ يوسف أنه يهوي في بئر ليس له قرار، رطب شفتيه بطرف لسانه، وقال بحدة وغضب ظاهرين:

- وهل كنت تتجسس عليّ!.. الآن عرفتُ مَن أخبر مريم، لكن ليكن معلوماً لديك أن الأمر لا يعدو مجرد سوء فهم منك ومن أختك.

خبط عماد بيده المنضدة التي أمامه وقال بغضب:

- أنا لم أخبر مريم.. بالعكس أنا دافعت عنك، لكنك تكذب.. ويضطر المرء أن يكذب في مثل هذه المواقف إذا لم يكن صريحاً أو شجاعاً، وإذا أصر على التمادي في خطئه.. وأضاف بعد لحظة صمت: هذه ليست خيانة فقط.. إنها..

قاطعه يوسف مجدداً:

- أظن هذا كافياً، لا أريد منك نصائح، خذ أغراضك واغرب عن وجهي.
- لا، ليس كافياً، لا بد أن أعرف الحقيقة، وتعرف ما أعرفه عنك وعنها.. لقد شاهدتها للمرة الأولى في المحل، ولا أنكر أنها تتمتع بجمال يوحي بنضارة غير عادية، لقد تمعنت في جمالها قبل أن تصرفني من المحل.. ومع أنها تجاهلت نظراتي، إلا أني شعرت أنها لم تدخل المحل

كعابرة سبيل أو زبونة، لا، كانت قادمة من أجلك.. لاحظت ذلك من خلال اضطرابك.. شككتُ في الأمر، وتبعتك ذات مساء إلى جبل عمان، وهناك تأكدت أنَّ الأمر ليس عبثاً أو مجرد تخمين، وأنا أراك تدخل الشقة وتطيل المكوث عندها، اعتقدت في البداية أنك تخون مريم، وتساءلت في قرارة نفسي هل يمكن أن يخون يوسف زوجته!.. وهل تستحق مريم الغدر والخيانة من زوجها!؟..

ومع أني عرفت كل هذه الحقائق، إلا أني لم أخبر مريم، وحين قررت مواجهتك في الأمر، عرفت أنك متزوج منها على كتاب الله وسنة رسوله.. فكتمتُ الخبر وغضضتُ الطرف عنه، متجاهلاً الأمر برمته.

قاطعه يوسف ثانية: يكفيني ما أنا فيه.. فقد وثقت بك طويلاً، لكنك خيّبت ظني حين اعترفت أنك تتجسس على تصرفاتي.

- أنا لم أتجسس عليك، أنا حاولت أن أعيد الأمور إلى نصابها، وأقنع زوجتك بالأمر الواقع بعد أن عرفت بعلاقتك من خلال المكالمة الهاتفية، وأنك تزوجت امرأة ثانية.. فأنا لا ألومك إذا لم تكن مرتاحاً مع شقيقتي، لكن لا تظلم واحدة على حساب الأخرى.. اذهب إلى مريم، اعتذر لها وأقنعها بوجهة نظرك.. ربما تقتنع منك وتصفح عنك..

وقبل أن يكمل حديثه دلف خالد البيت.. نظر إلى أبيه يوسف ولم ينبس ببنت شفه، وانطوى في مجلسه محتقن الوجه منقبض الصدر.. وفي محاولة عن الإعلان عما في دخيلته، ليلفت نظر أبيه إلى أنه لم يعد صغيراً، وأنه يعرف كل شيء عن علاقته مع تلك المرأة.. بدا كالسباح الذي يفتقر إلى التجربة حتى يرتمي من شرفة القفز إلى الماء، وهو بين الرغبة في الغطس والخوف من الغرق.. وأدرك يوسف أن ولده يتخبط في حيرته، واهماً أنه فهم الحياة أكثر منه.. وتساءل في نفسه من المذنب هو أم مريم، وما ذنب الأولاد في كل هذا!.. ورغم أن يوسف اعتبر أن تصرف ولده جهل ينم عن عدم معرفته للحقيقة، إلا أنه تجنب النظر إلى عينيه ولاذ بصمته.

قبل الظهيرة وصل يوسف المستشفى، كانت مريم نائمة في سريرها، تقدم وأمسك يدها.. وما إن وقع نظرها عليه حتى ارتجفت وصرخت "طلّقني، لا أريدك، ولا أريد أن أرى وجهك".. وراحت تصرخ بأعلى صوتها.. اندفعت ممرضة نحو الصراخ، طلبت منه أن يترك المريضة وشأنها، وقادته إلى الممر خارج الغرفة.

***

بعد ثلاثة أيام تماثلت مريم للشفاء، وقال عماد أنه أقنعها بإصلاح الأمر، وأن الأمور ستجري حسب ما تراه مناسباً لها.. فعادت إلى بيتها على مضض، قطعت علاقتها بزوجها يوسف، والتجأت إلى أحضان أولادها، تتألم وتبكي ظلمه لها.. ومع ذلك ظل يوسف يتردد على البيت بعد غياب يطول لعدة أيام، يبيت ويرعى شؤون أولاده الذين أصبحوا همزة الوصل والتخاطب بينه وبين زوجته.. وكانت مريم تتشاجر معه لأتفه الأسباب.. تدلف غرفـــتها، وتغلق على نفسها الباب بالمزلاج من الداخل، ولا تفتحه إلا بعد أن يخرج من البيت.

وحين يعود يوسف بذاكرته إلى الوراء، يتذكر تصرفات أولاده واحداً واحداً، ويذكر أنه كثيراً ما حاول التودد لهم والتقرب منهم، حتى يعوّضهم عن السنوات التي قضاها بعيداً عنهم، فهو يعرف أنهم ومنذ طفولتهم، تشرّبوا طباع والدتهم وتعلقوا بها أكثر منه خلال سنوات غربته وعمله خارج البلاد.. كما يعرف أنهم وجدوا أنفسهم مع تعاقب السنوات يعيشون مشاكل الوالدين.. ولم ينس يوم عودته من غربته في المرة الأخيرة عندما وقف ابنه خالد قبالته مثل تمثال شمعي، ينظر إليه كمن ينظر إلى صورة فوتوغرافية، قبل أن يحتضنه ويرتمي على صدره.

***

متاهة يوسف

استقبلته أحلام بفتور، وقالت: وأخيراً عدت!..

قال وهو يلقي بجسده على طرف الأريكة: لا تخاطبيني بمثل هذه النبرة، يكفي ما حدث لي.

- حسناً، اجلس فعندي الشيء الكثير لنتحدث عنه، واعلم أني على غير استعداد لسماع إهانات أقاربك.
- خير، ما لك وما لأقاربي!

استندت على الجدار ووقفت أمامه، قبضت بيدها اليمنى مرفق يدها اليسرى، أظهرت بعض العبوس على وجهها، وتركت شعرها الأسود الفاحم يسترسل على منكبيها، فبدت مثل غجرية حسناء، قالت "جاءني قبل يومين شخص، هدد وتوعد إن لم أبتعد عنك، وأسمعني كلمات لاذعة.. وكذلك زوجتك، اتصلت بي وعنفتني أيضاً، وكأني أنا السبب في كل ما حصل في بيتك".

لم يدر يوسف ماذا يقول، غاص في بحر قوقعته صامتاً، وتساءل في قرارة نفسه كيف تجرأت مريم وطلبت أحلام لتسمعها من الكلام القارص أنواعاً مختلفة، ومن الذي تجرأ وجاء إلى أحلام يهدد ويتوعد!؟

في اليوم التالي وبعد أن خرجت أحلام إلى عملها في الصالون حسب عادتها، جلس يراجع في ذاكرته ما حدث معه.. وتساءل في دخيلته إذا كانت أحلام صادقة في كل ما قالته، أم أنها تتلاعب بأفكاره لغاية في نفسها.. وفي ذات الوقت اعترف لنفسه أن الصدمة التي حصلت لمريم كانت قوية

لدرجة أنها لم تستطع احتمالها.. أخذ يتأمل مشاعره المتأججة تجاه زوجه وأبنائه، داهمه شعور بليد، وبدا وكأن الأمر لا يعنيه.. أدرك أن مشاعره تدور في فراغ، وأحاسيسه في مكان آخر.. أحلام أخذت منه كل شيء، ولا يدري كيف يتجمع الحب والكراهية والرغبة والنفور والحاجة والرفض في ساعة واحدة عندما يكون وحيداً في غرفته!.. شعر أن الأمر يشبه التحدث إلى النفس، وهذا الجنون بعينه.. حدّث نفسه، "ما أشقى الإنسان حين يعيش في بيته مهزوماً".

وقف أمام المرآة ونظر بحب الاستطلاع إلى صورة الرجل الذي فاق السابعة والأربعين من عمره، وما زال يحتفظ بالشكل نفسه تقريباً طوال حياته منذ بلوغه سن المراهقة، شعره الأسود فقط تغيّر وبدأ الشيب يغزوه بسرعة.. تحول حب الاستطلاع إلى صراع مباشر بين رجل وآخر.. تراجع إلى الوراء خطوة ونظر إلى صورته كاملة في المرآة، أكد لنفسه أنه يقف أمام رجل أنيق الملبس على حافة الانهيار.. لم يكن للتفكير في ذلك أي جدوى.. انتزع نفسه من وسط المرآة وتكوّر على الأريكة.. شعر أنه ضل طريقه وأضاع هدفه، وبقي على حاله ساعة من الزمن شارد الفكر مضطرب الأعصاب، وفي لحظة انفعال تناول هاتفه المحمول، واتصل

بزوجته مريم، وما إنْ سمعت صوته حتى أغلقت الخط في وجهه.. وفي اتصال آخر مع عماد، قال أنه على استعداد لإصلاح ذات البين، وتلبية رغبات مريم حسب ما تراه مناسباً.

قال عماد أن مريم مضطربة بعض الشيء، وتعاني حالة اكتئاب حاد، وطلب منه الصبر.. وحين أغلق الخط، ثار في نفس يوسف نوع من الحقد والكراهية على كل النساء.

في الأيام التالية، أغلق هاتفه المحمول ولم يرد على أية مكالمة، كما انقطع عن عمله بعد أن اتصل بابنه خالد ليدير أعماله، وأبلغه أنه سيسافر خارج الأردن لعدة أيام.

***

ناصر

في دمشق، وفي بيت أخيه ناصر جاسر الفهد الذي يتابع دراسته الجامعية في جامعة دمشق، حطت رحال يوسف.. إذ كثيراً ما كان يزوره لعدة أيام، يتفقد أحواله، ويعيد ترتيب أموره، متناسياً مشاكله العائلية.

وفي بيت أخيه، كثيراً ما كان يلتقي يوسف بأحمد ورفاقه.. يسهر معهم ويشاركهم الحديث.. كانت سهراتهم تمتد حتى الفجر، جلهم سياسيون، مقاتلون، حزبيون، عصاميون، طلاب علم وأساتذة.. يتحدثون عن آخر ما وصل إليه العلم والتكنولوجيا، ويخوضون في الطب والاقتصاد والسياسة، وعن الوضع الفلسطيني، وعن اجتياح قوات التحالف للعراق..

أما تلك الليلة، فقد تصدر أحمد الحديث، وأعاد على مسامعهم قصة التحاقه بقوات المقاومة في جنوب لبنان بعد أن أنهى خدمته العسكرية، قبل أن يعمل معيداً في الجامعة.. تحدث عن الذين استبسلوا وقاوموا وضحوا في تل الزعتر وصبرا وشاتيلا وعين الحلوة وقلعة الشقيف ومعتقلات عتليت والخيّام وأنصار، كما روى عن الحوادث التي تعرض لها الرفاق ممن أصيبوا في الجنوب اللبناني.. وتساءل إذا كان هؤلاء الشهداء غباراً مجانياً مضى في الريح، أم هم ماء الأرض وملحها وينابيعها!؟

تحدث عن الموت والقهر في المنافي، وعن رجال شجعان قبلوا التحدي وذهبوا إلى حدود لبنان الجنوبية، فاستشهد بعضهم وأصيب بعضهم الآخر بالجنون لكثرة إطلاق النار، ولم ينسَ الذين باعوا ضمائرهم وأوطانهم، وشيدوا القصور،

وصارت لهم أرصدة في البنوك الأجنبية.. قال إنهم لصوص حوّلوا دماء الشهداء إلى عقارات وشركات وصفقات سرية، ورموا الوطن في المزاد وأحضان الأعداء.

تساءل أحدهم "من المسؤول عن هذه الهزائم والانحطاط السائد؟.. ومن أين خرجت هذه الكلاب المسعورة والخنازير وجرذان المجارير!".

رد عليه آخر "الجذر منخور والتربة فاسدة".

وقال أحد الأساتذة "في التاريخ المعاصر ثلاث فواصل تشير إلى النهاية، اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨م، وهزيمة العرب عام ١٩٦٧م، وانسحاب المقاومة من بيروت عام ١٩٨٢م.. العرب لا شيء في هذا الزمن".

وقال آخر "ونسيت الفاصلة الرابعة، احتلال العراق عام ٢٠٠٣م".

وعلّق أحمد "في هذا الزمن يقايضون الدم بالدولار".. وأضاف "من يدري ماذا تخبئ الأيام!.. ربما تتكرر مأساة العراق في لبنان أو سوريا أو اليمن، وكارثة أفغانستان في إيران أو الباكستان".. ثم ابتسم وأضاف: "هل سمعتم آخر نكتة؟.. يقال إنَّ اليهود دبلجوا المذابح والصور في انتفاضة الأقصى، وجعلوا من "محمد الدرة" طفلاً يهودياً قتله

الفلسطينيون عن سبق إصرار وترصد، ونشروا صورته عبر فضائيات الغرب بعد أن ألبسوه طاقية يهودية".

أما ناصر فقال "بعد كارثة الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا، تغيرت الأحوال للأسوأ، أصبح اللون العربي من الألوان المشؤومة لبعض الأمريكيين، وكأنه يذكرهم بالهنود الحمر، أصبح بعضهم يرى صلاح الدين في كل مسلم أو عربي، حتى لو كان خارجاً من أحد البارات أو دور الدعارة".

قبل الفجر بقليل، وبعد أن انفضت جلسة الرفاق، استلقى يوسف على سريره وأخذ يستعرض في ذاكرته من جديد تلك الأيام التي قضاها مع المقاتلين في جنوب لبنان، تذكر كيف هب مع زملائه بعد أن توقف عن دراسته الجامعية خلال سنته الثانية في جامعة بيروت، والتحق بقوات المقاومة بعد دورة تدريبية قصيرة على السلاح، لصد القوات الغازية.. كما تذكر رفاق السلاح واحداً واحداً، وانسابت دموعه وهو يتذكر أحدهم بعد أن أصيب بطلق ناري في صدره، أسعفه أحد الرفاق ونقله إلى قلعة الشقيف، ثم عاد لمواصلة القتال.. لم ينس يوسف تلك الليلة، لكن الرفاق نسوا الجريح في مغارة القلعة الباردة.. وفي صباح اليوم التالي وجدوه ميتاً إثر نزيف داخلي حاد..

كان المقاتل مسكوناً بقضية فلسطين وقضايا العروبة، وعبثا حاول أن يتحرر من أفكاره وهو على فراش الموت.. وقال جريح آخر كان بجانبه أنه ظل طوال الليل يصرخ ويردد "لماذا تركوني هنا؟! ولماذا لم أكن معهم؟ أقاوم الدبابات الإسرائيلية وهي تسحق الحب والزهور في مرج الزهور".

صباح اليوم التالي نقلوه مع ثلاثة شهداء من رفاقه إلى بيروت، لم يغسلوهم، شيعوا جنازاتهم ودفنوهم في نفس اليوم، وقالت زوجة أحد الشهداء وهي تودع الجثامين في مقبرة الشهداء "يا ويلي عليهم، دفنوهم تحت التراب مثل حب القمح".

في الليلة التالية سهر رفاق السلاح مع القمر حتى الصباح، لم يكن يعكّر صفو الليل غير بريق وهدير القذائف القادمة من الحدود الجنوبية.. وأحد المقاتلين يعزف على عوده، يتنهد مجروحاً ويصيح أوف.. وتردد الجبال والوديان والغابات والصخور والليل "أوف، أوف يابا يابا".. وكانت رؤوس المقاتلين تهتز طرباً، ويربتون بأكفهم على أسلحتهم التي يفترشونها وعيونهم مفتوحة.. عتابا وميجانا وزجل وقذائف ورائحة بارود تملأ الأنفاس.

كان يوسف يستعيد الأحداث وكأنها محفورة في ذاكرته، ويحدث نفسه أن الــوضع كـــــان مفرحاً ومحزناً في الوقت نفسه إلى
حد البكاء، أن يكون المرء يفكر بالخلاص، ويغني:

"بلدي يا بلدي وأنا عايز أروح بلدي
يا عزيز عيني وأنا عايز أروّح بلدي".

يتذكر يوسف الأحداث، ويستعيد صوت المغني وهو يرتفع متمهلاً مثل الضباب الذي يكسو بحيرة الليطاني، صاعداً متمدداً نحو الجبال، ممزوجاً بالحزن والفرح والغضب، وسنابل القمح الذهبية تتماوج في السهول مع الهواء، تتمايل في مختلف الاتجاهات بتناسق، وتتلامس مثل راقصي وراقصات بحيرة البجع.

كان يرافق المقاتلين في الجنوب، يتجول معهم وسط الغابات، يبحثون عن طرائدهم، يشعر أن عالمهم بلا حدود، ومكان بلا زمان، لا بداية ولا نهاية منظورة، عقول بلا حدود وبلا نهايات.. يرقب الليل وحركات جنود الأعداء، وأحد الرفاق يتربص لأحد الجنود، ويصطاده حياً مثل اصطياد الثعالب والأفاعي وطيور القطا دون إطلاق نار، ويمد ذراعيه قابضاً على بندقيته الأوتوماتيكية، ويسدد نحو الجنوب.

كثيراً ما كان يوسف يتذكر تلك الأيام.. ويتساءل في دخيلته إذا كان ما حدث له حقيقة أم حلماً!.. وحين يغمض عينيه للنوم، تنساب دموعه، ويشعر أنه يغمض على حفنة من الرمل.

***

مساء اليوم التالي، جلس يوسف ينتظر أوبة أخيه ناصر بفارغ الصبر، طافت بذاكرته حياته الأسرية مع مريم وأحلام، شعر أن المشاكل تلاحقه أينما حل.. يحملها في ذاكرته، وتتلبسه مثل ملابسه ومسامات جسده.. حدّث نفسه "لا أريد أن أتذكر شيئاً"، تناول مجلة وبدأ يتصفح أوراقها.

طال انتظاره، تثاءب وشعر أن جسمه يتهدم.. تناول هاتفه المحمول وطلب أخاه ناصراً.. لم يرد، وسمع عاملة الاتصالات تجيب أن الهاتف مغلق ولا يمكن الاتصال به.

مكث ينتظر بفارغ الصبر، عاود الاتصال بأحمد وسأله عن ناصر، فطمأنه الأخير أن من عادة ناصر أن يسهر عند أصحابه، ولا داعي للقلق عليه.

***

قاربت الساعة من الثانية صباحاً، ولم يعد ناصر بعد.. تثاءب يوسف مرة ثانية وشعر أنه لا يحتاج سوى وضع رأسه

على مخدة كي يغفو، لكنه لم ينم.. استلقى على سريره، أغمض عينيه، وتسلل إلى رأسه ذلك التنمل الذي يسبق النوم.. شاهد نفسه يحمل السلاح ويقاتل الأعداء، حلقت طائرات وقذفت بحممها على المقاتلين، أصيب في صدره ووقع على الأرض، وحين أمعن النظر، شاهد أخاه ناصراً يرتدي ملابس بيضاء ملطخة بالدم، ويتمدد بين الشهداء بلا حراك.. فجأة انتفض جسمه واستيقظ.. استعاذ بالله من الشيطان وأغمض عينيه ثانية، وترك الخيالات تأخذه إلى أخيه ناصر.. فمنذ صغره كان ناصر يقرأ بنهم، يزور خاله أحمد ويقلده في حركاته وتصرفاته ونبرات صوته، ويتابع التلفاز لساعات طويلة، قضية فلسطين كانت حاضرة في ذاكرته كل وقت، كما انتفاضة الحجارة حاضرة دائماً، يلاحق الصِبية بعينيه وهم يتراكضون فرادى وجماعات وراء حجارتهم الصاروخية، تبتلع الأزقة الفتيان، يحاول أن يخمد البركان الحائر في داخله، يتمدد وعيناه مثبتتان على التلفاز، ويرخى لتفكيره العنان كي يُفعّل الأدوار.

فكرة واحدة لم تفارق ذهنه.. كان يستطيع أن يفكر في كل أمر، كما صرّح ليوسف ذات مساء.. يفكر في شؤون الدراسة، في التعامل مع المجتمع، في ارتباط أبيه بوالدته جميلة وهجرانه لزوجته أمينة.. يستطيع أن يأكل وينام ويقرأ ويكتب ويتحدث

ويمزح ويحزن، لكن فكرة الالتحاق بالثورة كانت تقبض على روحه، وتضغط عليه بين الحين والآخر، ولا يعرف كيف يحقق ذلك الهدف.

كان جريئاً بالطبع لا بالتطبع، ولم يكن جريئاً فحسب، بل كان رقيق الإحساس أيضاً على نحو يفوق المألوف.. فمنذ صغره تعلّق بتربية الطيور المغردة، ومع أذان الفجر كان يستيقظ على صوت كناره الحبيب، يتوضأ ويصلي، وعلى صوت غنائه كان ينسى همومه وآلامه.

وحين التحق بالدراسة في جامعة دمشق، كثيراً ما كان يجالس خاله أحمد، يشاهد المحطات الفضائية في الليل ويتابع حكايا الثورة الفلسطينية، يردد على مسامع رفاقه بأن الجهاد في كل مكان وزمان.. ولا فرق بين فلسطين والعراق أو أي مكان ترفع فيه راية الإسلام.. يرسم الصور، ويرى تفاصيل اللوحة بكل أبعادها وألوانها الرمادية.. يحملها في قلبه ويطير يوم إجازته إلى بيت جده أبي أحمد، يعيد رسم اللوحة ويلوّنها بألوان قوس قزح.

يتذكر يوسف ذلك ويستعيد في ذاكرته يوم إجازة أخيه ناصر الأخيرة التي قضاها بين والديه في عمان، شاهده ينزوي في غرفته، بعد زيارة قصيرة قام بها والده إلى أمينه.. يومها شحن

جو البيت، وتوترت أعصاب والدته جميلة، أسرعت إلى غرفة نومها، أغلقت على نفسها الباب، وتركت والده جاسر الفهد يردد بصوت عالٍ، وكأنه يحدث نفسه "كل زوجة تغلق الباب على نفسها، وكل ولد ينحاز إلى والدته.. هذه تصرفات صبيانية تنم عن جهل وسخافة، تؤدي في نهايتها إلى تنافر الأبناء".. يومها قطع ناصر إجازته، وقال إنه ذاهب إلى بيت جده أبي أحمد ليتجنب مشاكل والديه.

طالت الساعات، ولم يعد ناصر إلى البيت تلك الليلة، كما لم يظهر طيلة اليوم التالي.. حاول يوسف الاتصال به أكثر من مرة، لكن هاتفه كان يعلن أنه مغلق ولا يمكن الاتصال به.. اتصل بأحمد وبرفاقه يسأل عنه.. وحين لم يجدوا له أثراً، راحوا يبحثون عنه.. سألوا عنه في بيت جده أبي أحمد، في الجامعة، في المشافي، في السجون وفي مراكز الحدود، لكن أحداً منهم لم يجرؤ أن يبحث عنه في صفحات الوفيات.

أظلمت الدنيا في عيني يوسف، ومر أكثر من عشرة أيام قبل أن يتصل بوالده الحاج جاسر الفهد، ويبلغه الخبر بصورة مقتضبة، ويطلب منه المجيء إلى دمشق.

أسرّ جاسر الفهد الخبر في صدره وأسرع إلى دمشق.. بحث من جديد، سأل من جديد، وفي مساء اليوم الرابع تواردت

الأخبار من أحد زملاء ناصر الملتحين أنه التحق بمجموعة من المقاتلين، قائلاً إنه استشهد أثناء قصف الطيران الأمريكي لمقاتلين عرب شمال العراق قرب الحدود الإيرانية، وهم في طريقهم إلى أفغانستان.

مثل الصاعقة وقع الخبر على أسماع يوسف ووالده جاسر الفهد.. خبأ جاسر الفهد أحزانه في صدره، وطلب من ولده يوسف أن يتكتم على الخبر حتى يعلنه بنفسه، وعادا قبل عيد الأضحى بيوم واحد إلى عمان.. وقال لزوجته جميلة أن ناصراً ذهب مع أصحاب له لقضاء عطلة العيد في تركيا.

لم ينم جاسر الفهد تلك الليلة.. أكثر من سبعين خريفاً مر من عمره وهو يقاسي الحر والبرد والمعاناة، ومع ذلك كان يهجع للنوم ويغمض عينيه لساعات طوال.. أما تلك الليلة فلم يغمض له جفن، راح يعاني ويتألم.. ومع ذلك أخفى مشاعره وحبس دموعه حتى تنقضي أيام العيد بسلام.

"يوم وسيمر"، قال جاسر الفهد في دخيلته، قام توضأ وصلى الفجر، ثم جلس يدعو الله في سريرته، هيأ نفسه وقصد الجامع الكبير لأداء صلاة عيد الأضحى المبارك.

استوقفته جميلة عند الباب، قالت "ادعُ الله أن يعود ناصر إلينا في أقرب وقت"، وهمست كأنها تحدث نفسها "والله لا

أعرف كيف طاوعك قلبك وتركته يذهب إلى تركيا في أيام العيد.. أنا قلبي مثل النار عليه".

جال أبو يوسف بنظراته أرجاء الغرفة، حاول أن يقول شيئاً، شعر باختناق صوته.. أضافت "يعني ضروري يغيب عن أمه أيام العيد؟" .

أخفى نظراته وتشاغل في لبس الحذاء، قال وهو يهم بالخروج "لا أحد يستشير غيره هذه الأيام! شباب ويعملون ما في رؤوسهم".

انشغلت بترتيب عباءته وهندامه لثوانٍ، وقالت معاتبة:

"تأخرت مساء البارحة أنت الآخر، ولم تعد كعادتك، أين ذهبت؟".

ارتبك لهذه الملاحظة، أدار وجهه نحو الباب وقال:

"كنت عند أبو محمود، آه، تأخرت عن الصلاة"، وانسحب يحمل آلامه قبل أن تفضحه عيونه.

تأخرت عودته بعد صلاة العيد.. دار في الشوارع الخلفية، ابتعد عن أعين الناس، تمنى لو تركض الشمس وتحتجب حتى يزيل الكابوس عن صدره.. ليتكلم وينتهي الأمر، لكنه لا يحب أن يعكّر صفو الأقارب في عيدهم، حدث نفسه، إنه فلسطيني

قادر على حمل الجبال، لكن الأقارب، ما ذنبهم في مصابه الجلل!

دقت الساعة العاشرة صباحاً، ولم يعد جاسر الفهد إلى بيته، زوجته جميلة تنتظر أوبته بفارغ الصبر.

بدأ الجيران والأقارب يتوافدون إلى بيته، يسلمون، ويسألون عنه.. جميلة لا تعرف ما تقول لهم، تعتذر "الحاج جاسر ذهب إلى بيت أم يوسف، وإلى بيت يوسف.. دائماً يذهب إليهم ويتفقدهم قبل أن يعود إلى بيته"، وفي أعماق نفسها تساءلت "ما الذي أخّره! فليس من عادته أن يتأخر بعد الصلاة".

دخل قريبه أبو محمود، سلّم وسأل عنه.. قالت "أنت أقرب الناس إليه، لم يعد من الصلاة حتى هذه الساعة، ولا أدري ما الذي أخّره!.. إن شاء الله يكون خير".

لاذ بالصمت، أضافت "منذ أن عاد مساء البارحة من عندك وهو مشغول، ولم ينم طيلة الليل".

- مِن عندي! تساءل أبو محمود.
- قال إنه سهر عندك.

تلعثم أبو محمود وغاص في أعماقه..

قطعت حبل أفكاره "خير يا أبو محمود، وين سرحت، تفضل اشرب القهوة حتى يعود أبو يوسف، البيت بيتك".

اعتذر، وقبل أن يهم بالخروج، فُتح الباب الخارجي ودخل الحاج جاسر الفهد يتوكأ على عصاه مع ولده يوسف.. ركض أحفاده الصغار نحوه، نبشوا جيوبه قبل تقبيل يديه.. صرخ "عيب يا أولاد"، وفضحته دموعه قبل أن تفضحه نبرات صوته الحزينة وهو يقبلهم واحداً واحداً.

انطلقت صرخة خافتة من جميلة "مال أبوك يا يوسف، خير إن شاء الله".

تجاهل يوسف سؤالها، وأخفى والده نظراته جانباً، لكنه لم يستطع أن يوقف دموعه.. فجأة صرخ أبو محمود: ما لك يا رجل! هذه ليست عادتك، لماذا هذه الدموع في هذا الصباح!.. نسيت أننا أخوة، وما يصيبك يصيبني، خير إن شاء الله.. وأضاف بعد أن دلفا مع يوسف حجرة الضيوف:

- سقى الله أيام زمان، عندما كنّا نعيّد في بلادنا بين البساتين، لا نشتري ولا نبيع، كان كل شيء موجود.. والله كانت أيام خير، لكن الله يجازي الخونة والظالمين.

لاذ أبو يوسف بصمته ثانية، فأضاف أبو محمود:

- والله نفسي أروح أقاتل مع رجال المقاومة حتى أموت أو ترجع البلاد.

عدّل أبو يوسف من جلسته، نظر إلى الأرض، قال بصوت خافت وحزين:

- البركة في الشباب، لم يتركوا لنا فرصة.
- أنا نفسي أشوف داري، أشوف البستان في القرنة الغربية، هل نسيت التين وهو ينقّط عسل، أو خبز الطابون والمحمّر.. أي والله ساعة هناك بتسوى العمر.. ياما نفسي أشوف البلد وأصلي في المسجد الأقصى.. أشوف أرضي وأموت هناك..

قاطعه أبو يوسف: بكفّي موت يا أبو محمود.. راح خيرة الشباب.

- ما لك يا رجل، والله كلنا ما نسوى الغبَرة اللي بتطلع من أرض فلسطين.. يا ليت يموت نص الشعب الفلسطيني بس ترجع البلاد.

سادت لحظة صمت ثانية.. تذكر أبو محمود خلالها ما قالته جميلة، قال:

- وين كنت امبارح يا أبو يوسف!

تغيرت ملامح أبي يوسف، ولم تستطع لحيته البيضاء إخفاء ما بداخله، أضاف أبو محمود:

- ما بك يا رجل هذا اليوم، ماذا تخفي عني! أنا ابن عمك والدم

ما بصير ميّه.. أخبرني لماذا قلت لأم ناصر إنك كنت عندي!

جال أبو يوسف بنظراته في الغرفة والسقف، ثم خفضها إلى الأرض، ومع ذلك لم يجب، تجنب أن تلتقي عيناه بعيني أبي محمود.

ألح أبو محمود بالسؤال ثانية، وقال: لماذا لا ترد؟ أقوم أروّح!؟..

رفع أبو يوسف بصره وقال بنبرة حزينة:

- والله يا أبو محمود ما عدت أقدر على كتم السر، في صدري حطام الدنيا وعذاب العالم، "وانسابت الدموع من عينيه" عالمي ثقيل يا ابن عمي.

- خير يا رجل تكلم.. بط هذا الدّمل واخلص.

تلعثم أبو يوسف ثانية، وبصوت حزين قال:

- ابني ناصر..

قاطعه أبو محمود: أنا عارف إن ابنك ناصر رجل مثل أبوه، وإذا كان تأخر اليوم فلا بد أن يأتي غداً.

- الله يسمع منّك.. لكن لا أظن أنه سيعود.

- فأل الله يا حاج جاسر ولا فألك، ماذا تقول يا رجل!

- هذا الواقع يا ابن عمي، لقد استشهد ناصر.

ارتجف أبو محمود في جلسته، ولم يصدّق ما سمع.. ارتبك ولم يعرف ماذا يقول، وترك لنفسه مهلة حتى يستطيع التعبير عما جاش في صدره:

- تقول استشهد! هذا يعني أنه كان يقاتل، هو راح يدرس في الجامعة! أو راح يقاتل مع الفدائيين!؟

- قبل أيام اتصل بي يوسف وأخبرني أن ناصراً اختفى في سوريا، وبعد البحث عرفنا أنه التحق بمجموعة من المقاتلين العرب، وفي شمال العراق قرب الحدود الإيرانية، قصفهم الطيران الأمريكي.. وأكد لنا الصليب الأحمر مقتله مع خمسة من رفاقه.. أنا بعثته لينال شهادة جامعية، فنال شهادة الدنيا والآخرة.

انفتح الباب فجأة، واندفعت جميلة تصرخ قائلة "هذا ما أخفيته عني يا أبو يوسف، وتقول راح على تركيا!.. قلب الأم دليلها، أنا كنت عارفه أنك تخفي عني سراً".. واختنق صوتها وسط الدموع والصراخ.

استبدلت جميلة قلائد فرحها بثوب حداد أسود، وهمست والدموع تملأ عينيها، وكأنها تحدث نفسها "لماذا استعجلتَ الرحيل يا ولدي، وفضّلت العراق على فلسطين، كل بلد وله

رجاله، وفلسطين ما زالت بحاجة إلى الكثير من الشهداء".. وتساءلت إذا كان قد جُرح أو تعذب قبل استشهاده.. وزغردت والدموع تملأ عينيها، وقالت "ابني عريس، والعريس يجب أن يُزف وتقام له الأفراح ثلاثة أيام بلياليها".

وفي بيت العزاء، جلس يوسف حزيناً، مستشعراً بالوحدة لأول مرة في حياته، شعر أن المصائب تكالبت عليه، وأنه غريب رغم كثرة الناس والمعزين، أخذ يضرب رأسه بالجدار ويحدث نفسه بأن أخاه ناصراً ضحى بنفسه من أجل غيره، الموت يحرم المرء من كل شيء، أما الحياة فهي وحدها بإمكانها مناهضة الشر والعنف.. وظل دقيقة صامتاً ومتحجراً بلا حراك وكأن الحياة فارقته.

تنبهت والدته أمينة لصمته وشروده، قالت "الموت لا يوقف الحياة يا ولدي، هذا وعد ومكتوب، ولا رادَّ لقضاء الله".

تجاهل ما سمع، وراح في خلوته يستعيد صورة أخيه ناصر، ويقرأ الماضي والحاضر والمستقبل حسب معرفته وما علق بذهنه.. وحين أغمض عينيه، أسند رأسه على الجدار، واستسلم لسحابة نوم وغرق في أحلامه.. تراءى له أخوه ناصر بأم عينيه يرتدي ملابس بيضاء ويتقدم نحوه، ينحني

ويمسح ما علق فيهما من دموع، ثم وبكل هدوء أومأ له أن يتبعه.

قال وهو يخنق دموعه ويتأبط ذراع أخيه ناصر في طريقهما إلى مقبرة الشهداء "ما يؤلمني يا أخي أن أراك تستشهد قبل أن يتحقق هدفك".

أجاب ناصر "وهل تتوقف مسيرة العودة إلى فلسطين إذا زاد عدد الشهداء واحداً.. أنا لم أفقد سلاحي، لقد تركته أمانة بين يديك وبين يدي المناضلين الشرفاء".

في المقبرة وقف الشهداء يرحبون به، سلّم يوسف عليهم واحداً واحداً.. وقال "يؤلمني أن تستشهدوا قبل أن تروا نهاية البنيان".

ابتسم أحدهم وقال "سنموت فعلاً إذا توقفت المسيرة، أو تخليتم عن الأمانة التي تركناها بين أيديكم".

هبّت رياح باردة، تمايلت الأزهار الذابلة وتطايرت الأوراق الجافة، وخلّفت رائحة عبقة ملأت المكان.. اختفى الشهداء عن ناظريه، تمرّد أخوه وسط الظلام وانسحب ليتمدد وسط حفرة يملؤها النور.. صمْتٌ مطبق غلّف يوسف، وأخذ يتكسر بألم حاد بين ضلوعه.

لم يمت ناصر بسهولة، "حدث نفسه"، كانت أوصاله مقطعة قبل أن يحمل السلاح، منذ ولادته شعر أن أوصاله مقطعة.. أما عندما أبصر النور، ورآه في عيون أطفال الحجارة وسواعدهم، تأكد له أنه يعرف طريق العودة جيداً، كما يعرف الضغط على الزناد.

هبّت الرياح الباردة ثانية، تمايلت الأغصان وأسقطت أوراقها الصفراء، انحنت النباتات الصغيرة تُقبّل الأرض، وأرسلت أشجار الصنوبر الكبيرة المتناثرة وسط المقبرة صريراً يشبه الأنين والنواح، ذابت الألوان وتجمعت بلون ورقة صفراء جافة تتقاذفها الرياح، بدا صوت الأشجار كصرير الخشب في سفينة تغرق، سرت قشعريرة في جسده، وتأهب لمغادرة المكان.. تململ ناصر في قبره، وقف بملابسه البيضاء كالمارد وسط الظلام، وقال "تمردوا على حواجزهم، ولا تغرقوا سفينة العودة، فنحن نراقب مسيرتكم"، وعاد يرقد بهدوء.

لملم يوسف قواه، وسار بخطوات مترنحة مبتعداً عن قبر أخيه، فجأة أحس بضربة عنيفة على رأسه.. وصوت يقول "ماذا تفعل هنا؟".

صدى الصوت هز جوارحه وراح يتردد في أرجاء المكان، قال وهو يكاد يفقد الوعي "كنت أزور أخي"..

عبر الظلام تبادل كلمات مقتضبة مع حارس المقبرة الذي كان يرتجف ويهزه من صدره، ويلوّح بمجرفة ذات عصا

طويلة بيده اليمنى فوق رأسه.. بدت حنجرته مثل بئر جافة ولم يستطع النطق، ومن بعيد تعالى صوت ملائكي يعلن عن بزوغ الفجر ويردد عالياً "الله اكبر، الله أكبر".. تراخت يد الحارس، وسقطت المجرفة من يده، وهرول يوسف خارج أسوار المقبرة وهو يقرأ ما تيسر له من القرآن.

فجأة صحا من غفوته، شعر بتعرّق جسده وخدر شديد في ساقيه، وكان خط من الدماء يسيل من رأسه.

***

شرخ في أحلام يوسف

بعد أن لبست عفاف الحجاب قي رقبتها، اعتقدت أن الخوف قد انزاح عن كاهلها، إلا أن سرورها لم يدم طويلاً.. ففي إحدى الأمسيات وبينما كانت تجلس مع خطيبها في حديقة المنزل يتحدثان عن المستقبل، وعن تأجيل الزفاف بسبب استشهاد عمها ناصر، صمتت، وأخذت تحدق بين الأشجار المغروسة خارج السور أمام البيت، ويداها ترتعشان.

- ما بالك؟ سألها خطيبها متعجباً.

همست: انظر بين تلك الأشجار، هل ترى شيئاً هناك؟

نظر وقال: لا أرى شيئاً.

همست بصوت أكثر خفوتاً: بدا لي أن أحدهم يتلصص علينا.

- انتظري حتى أتحقق من الأمر.

قفز من مكانه، تفحص الحديقة والأشجار وكل شيء، لم ير أحداً.. قال:

- سأخلع عين كل من يتطفل وينظر إليك.

قالت: خمّنت أن أحدهم ينظر إلينا.. على كل حال إنس الأمر.

عند العشاء اختلت عفاف بوالدتها، أخبرتها عن الغريب الذي ما زال يطاردها.. طمأنتها والدتها بأنها حدّثت يوسف بالأمر، فذهب إلى مركز الأمن وأخبرهم بقصته، فقال الضابط أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال شخص يتمشى هنا وهناك طالما أنه لم يعتدِ على حقوق الآخرين.. ومع ذلك استدعاه الضابط وحقق معه، وتبيّن أن اسمه "نايف"، وقد جاء يبحث عن عمل بعد أن ضاقت به الدنيا، وخسر كل ما لديه، وأخذ عليه تعهداً بعدم الاقتراب من بيتنا.. وأضافت "المهم يا ابنتي أن يتم زفافك بخير، ودون مشاكل".. وقامت باصطحابها إلى أم حسن لاستشارتها في الأمر.. قالت عفاف:

- يبدو أن الله يعاقبني على شيء لم أفعله، أو لا أدري عنه شيئاً.. ويُخيّل لي أن لا شيء يجدي نفعاً، لا الحجاب ولا غيره.

طمأنتها أم حسن، وقامت وألقت البخور في النار، وأخذت تتفوه بكلمات غير مفهومة.. ثم حدّقت في الدخان المتصاعد وقالت:

- إنه كافر لا يخاف الله.. إن الله معنا، وسننتصر عليه بإذن الله.. أترين يا مريم مثل ما أرى؟.. حتى قرينه كافر، ومن الصعب أن أقبض عليه دون الحصول على أثر منه، لماذا انتظرت كل هذا الوقت حتى تغلب سحره على ابنتك؟.. لكن بإذن الله سوف نتغلب على سحر هذا الكافر.

استجمعت عفاف قواها وراحت تصلي، وارتاحت نفسها ليومين متتالين.. وفي اليوم الثالث وكان يوم الجمعة، قام والدها بزيارة المزرعة مصطحباً معه جميع أفراد عائلته، وراحت عفاف تتجول في أنحائها، ولا تدري كيف اندفعت إلى الجهة الغربية منها، وجلست قرب أشجار الموز المتشابكة على طرفي سياج المزرعة، ترقب الطيور وهي تحط على أوراقها العريضة وتلتقط الحشرات.. وتتأمل الطبيعة وانسياب المياه في قنوات الري الصناعية.

عند المساء، عادت عفاف إلى أسرتها شاحبة، وقد لفت قدمها بمنديل رقيق أبيض عليه نقاط من الدم.. وما إنْ رأتها والدتها حتى قالت:

- ماذا أصابك يا ابنتي؟ أين كنتِ ولماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

تأوهت عفاف وقالت: دخلت شوكة في قدمي.. خذيني إلى البيت يا أمي، أنا تعبانه.

وقال والدها يوسف بعد أن شاهد قدمها:

- إنه جرح بسيط، وليست شوكة كما تقول، ربما داست على صخرة مسننة أو زجاجة فارغة، ويجب تعقيم الجرح.. وأسرع عائداً مع أسرته إلى عمان.

***

في البيت أسرعت عفاف إلى غرفتها، تمددت على السرير وأرخت لدموعها العنان.. وأيقنت مريم أن في الأمر سراً أخفته ابنتها عفاف عنها.. وحين حاولت استيضاح الأمر، كتمت عفاف سرهـا، وقـالت أنها تتألم بسبب الجرح.

في الصباح وما إنْ غادر يوسف البيت، حتى أسرعت مريم إلى جارتها الحاجّة أم حسن لتساعدها حيال هذا الأمر.. ووصلت أم حسن كما لو أنها على مكنسة ساحر تتقصى

الأمر، وخلفها مجموعة من الجارات المتطفلات.. نصحت إحداهن بحرق الجرح مكان الشوكة لتطهيره، بينما قالت أخرى "هذه عين حسود.. والحسد لا يمنعه إلا خرزة زرقاء".

وقالت أخرى: يا لطيف، عين أصابت أهل الدار، لم ينتهوا من حكاية ناصر بعد، حتى أصابت عفاف.. لكن أم حسن وضعت على القدم المتورمة كمية من الثوم المهروس، وأبعدت الجارات قائلة أن عفاف مثل ابنتها، وأن كل شيء سيكون على ما يرام.. وما إنْ خلا الجو لهما، وقامت والدتها مريم تحضر طعام الغداء، حتى أخذت الحاجّة أم حسن تتفحص قدم عفاف وقالت:

- أخبريني يا عفاف، ماذا حدث معك؟

نظرت عفاف إلى قدمها فلم تر المنديل، أخذت تتلفت يميناً ويساراً تبحث عنه.. فقالت أم حسن:

- إذا كنت تبحثين عن المنديل فأنا أخفيته عن أعين النساء، ووضعته تحت وسادتك.

مدت عفاف يدها نحو المنديل، تفحّصت بقع الدم، وتغير لونها من الشحوب إلى الاحمرار.. قالت أم حسن:

- يا عفاف، أنا مثل أمك، لا تخفي عني شيئاً.. تقولين إن الدم من أثر الجرح.. أما خوفك فيقول أنك تخفين شيئاً آخر.. هل أخمن أو تريدين أن أفكّر عنك بحيلة؟

أخفت عفاف وجهها براحتيها، وأخذت تجهش بالبكاء، قالت:

- لا أعرف ماذا حصل لي.. أنا ضعت إلى الأبد، ولا شيء ينقذ شرفي بعد الآن.

كتمت أم حسن صرخة في أعماقها، ووقفت فجأة، قالت:

- يا الله، ماذا أسمع!.. أنتِ فرطتِ بعفتك!.. أنا لا أصدق أنك عفاف التي أعرفها.

وراحت تتحسس وجنتي عفاف اللتين كانتا ساخنتين، واجتاحتها رغبة مفاجئة لتصفعها على وجهها، لكنها كتمت ما في أعماقها وقالت: وجهك يغلي مثل النار.

همست عفاف: أرجوك يا خالتي أم حسن أنقذيني مما أنا فيه، ولا تخبري أحداً.

- وهل أنا مجنونة حتى أقول مثل هذا الكلام، لكن أخبريني كيف حدث هذا؟.. وقامت نحو الباب، أغلقته وجلست قربها، أضافت:
- أخبريني قبل أن يعود والدك، وتقع الفأس في الرأس.

أدارت عفاف وجهها جانباً وراحت تهيل الدموع.. لكن أم حسن ألحت عليها وطلبت منها أن تقول كل شيء بالتفصيل حتى تجد لها مخرجاً من هذه المصيبة "كما قالت".. وبصوت متقطع راحت عفاف تستعيد ما علق بذاكرتها..

"أنا لم أره في اليومين الماضيين، بالطبع تعرفين من أعني.. لكن البارحة، منذ الصباح كان صوته يرن في أذني قائلاً "اذهبي إلى المزرعة، اذهبي إلى المزرعة".. كأنما شخص ما يهمس بأذني.. علمت أن هذا بلاء من الله وامتحان لي، كنت على يقين أنه لن يكون هناك.. ولم أشعر بالراحة إلا عندما رافقت والديّ إلى المزرعة.. وفي الطريق خطر ببالي أني ذاهبة بنفسي إلى هلاكي.. لكن صوتاً غامضاً كان يهتف في أعماقي "اذهبي ولا تخافي".. وظل الهمس يدفعني إلى هناك.. من يدري؟.. ربما كان هناك.. وفكّرت، لماذا أخاف وأنا أعلم أن والديّ وجدي وكل الأسرة معي في المزرعة.. ولا أدري ما الذي دفعني للتسلل إلى الجهة الغربية من المزرعة، وتساءلت وأنا أنظر حولي "هل هو هناك؟".. أجل، لقد شعرت بالنصر أنه لم يكن هناك.. استعدت شجاعتي وقوتي حين لم أشاهده.. جلستُ قرب مجرى الماء، وأخذت أتأمل المياه المنسابة مثل الأفعى.. فجأة ظهر واقفاً قربي.. سارعت بالابتعاد، لكنني دست

على شوكة وجرحت قدمي.. لا أدري، جُرحت واعتقدت أنها شوكة.. لم أصرخ، لكن الألم جعل الدنيا تدور حولي، سقطت على الأرض قرب أشجار الموز.. وكما في الحلم رأيته يرفعني عن الأرض بذراعيه ويمددني على العشب الأخضر بين الأشجار.. وما بين الحلم والغيبوبة ركع بجانب قناة الماء، وبلل منديلاً أبيض لفه حول قدمي.. وفكّرت إذا كنت لا أستطيع الهروب من عينيه، فمن الأفضل ألا أنظر إليهما.. تألمت كثيراً وبدا رأسي يدور، لكني لم أنبس ببنت شفة، ولم أفتح عينيّ..

وضع يده على جبيني، وأمسك يدي بالأخرى، مرت قشعريرة بجسدي، ظللت صامتة.. تركني وبدأ يرش الماء على وجهي، رفع رأسي، آه، يا الله، ماذا كان بوسعي أن أفعل وقد اختنق صوتي ولم أستطع الصراخ!.. فتحت عينيّ.. لكن ما جدوى ذلك وقد فعل ما فعل.. أخذ يتحدث إليّ، كاد يسحرني بكلماته.. ما زال صوته يرن في أذني.. كلماته، حينما قال أنه يحبني، وأنه سيتزوجني في أقرب فرصة"..

قاطعتها أم حسن بعصبية: ماذا تخرفين يا عفاف؟.. أنت تكذبين على نفسك، وتدارين الخطأ بخطأ أكبر.

قالت: ماذا كان بوسعي أن أفعل، وأنا أراه يحدّق في جسدي ويعريني بعينيه؟

- أنا لا أصدق ما أسمع، فالشيطان يعجز عن تلفيق هذه الحكاية.
- قال إنه يحبني..
- هراء، هذا كذاب ومخادع.. سلب شرفك ونال مراده.
- فكرت في ذلك أيضاً، لكنه أقسم أنه يحبني، وأنّه على استعداد أن يتزوجني، آه.. إنني لا أتذكر الآن كل ما قاله لي، تحدث عن أبي وعن امرأة قال إن اسمها أحلام، قال إنها دمرت حياته، كما تحدث عن الانتقام منها ومن أبي، ولم أفهم ما علاقة أبي بموضوع أحلام التي تحدث عنها!.. كان كلامه مؤثراً.. وحين شاهد الحجاب أخذه مني.
- يا الله، هل أنت مجنونة!.. سلب شرفك وأخذ أثرك!

فجأة انفتح الباب وانقضت مريم على عفاف مثل نمر جائع ينقض على فريسته، صرخت وصفعتها بكلتا يديها على وجهها وعلى صدرها وبطنها ومزقت شعرها وقالت "ماذا فعلت بنفسك يا فاجرة؟ فضحت العائلة وجلبت لنا العار.. أنا سمعت كل شيء، ولن تخرجي من هذه الغرفة وفيك نفَس، سيكون موتك على يديّ.. وراحت تضربها من جديد، وتحاول خنقها، لكن أم حسن دفعتها ووقفت حائلاً بينها وبين عفاف، وأخذت تهدئ من ثورتها..

استسلمت عفاف لمصيرها ودموعها ولم تبد أية مقاومة، وهمست: "قال إنه يحبني، وإنه سيتزوجني.. وعليّ ألا أصدق غير ما قال حتى لو مت".

صرخت مريم ثانية: ألا يكفيني يوسف وأفعاله، حتى جئت أنت لتقضي عليّ..

قالت أم حسن تهدئ ثورة مريم: لا بد أن نجد حلاً لهذه المشكلة، ونجبره على الزواج منها.. المهم أن لا يعلم أحد بهذه المصيبة حتى نجد الحل.. تكتّمي على الخبر يا مريم ودعيني أتصرف.. ثم نظرت إلى عفاف وأضافت:

- ماذا فعلتِ بنفسك يا مجنونة**!؟**.. أنتِ قضيت على سعادتك بيديك وجلبت العار للعائلة.

هزت عفاف رأسها تصديقاً لكلام الحاجّة أم حسن، وقالت بعد لحظات:

- لم يعد لي أمل غيره، سأتبعه حتى لو قادني إلى الجحيم.
- ونسيتِ خطيبك الذي حدد موعد العرس بعد شهرين؟

أجابت بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها "أنا الآن مقيدة بسلاسل نايف.. فمنذ أن فتحتُ عينيّ ورأيت وجهه الذي كان على وشك الإغماء، ومنذ اللحظة التي سمعتُ فيها تلك

الصرخة المكبوتة، شعرتُ أن ظلاً هرب منه وتسلل في أعماقي.. أرجوك يا أم حسن أريد أن أنام، وأكاد أتجمد من البرد".

غضبت أم حسن، وشعرت أن عفاف ضاعت إلى الأبد، وكان بودها أن تنقض عليها تصفعها كما فعلت والدتها وتمزق شعرها، لكنها كظمت غيظها وكتمت سر عفاف، وقبل أن تخرج مع مريم من غرفتها، ألقت عليها لحافاً آخر، وراحت عفاف تحدق بشرود في فضاء الغرفة، ولم تنطق بعد ذلك بأية كلمة.

***

الفراشة والنار

صباح اليوم التالي، رن جرس هاتفه النقال.. أحلام كانت على الجانب الآخر.. قالت له "أنا تعبانه يا يوسف، تعال بسرعة"، وأغلقت الخط.

وصل يوسف جبل عمان مضطرب الأفكار.. أخذت أحلام تشكو وتتذمر من وحدتها، تجلس تارة على المقعد وأخرى على السرير، وكانت إحدى جواربها ملقاة على الأرض وثيابها مبعثرة في غرفة النوم.. بدت الغرفة غير مرتبة، وشعر أنه يغرق في متاهة.. سأل "ماذا حدث لك؟".

أجابت: لا شيء، اشتقت إليك بعد أن طالت غيبتك.

- سبق وأن أخبرتك أن والدي مريض، ويجب أن أكون جانبه.

- ونسيت زوجتك وابنك!

لم يجب، واتجه إلى الحمام، كشط ذقنه وغسل وجهه، وطلب منها أن تصنع له فنجان قهوة، قدمت له القهوة في غرفة الجلوس، وولجت حجرة النوم، أعادت ترتيبها وجلست أمام المرآة، سرّحت شعرها ووضعت على وجهها مكياجاً خفيفاً، ارتدت قميص نومها الأحمر الذي يكشف عن مفاتنها واستلقت فوق السرير، بدت كأنها عروس تنتظر عريسها بفارغ الصبر.. قام وتبعها إلى حجرتها، اقترب منها، قالت بدلال "كنت أعتقد أنك هجرتني ولن تعود إلى حبيبتك"، ابتسم لها واقترب منها، صدّته بيدها وقالت:

- لا تقترب مني حتى تفي بوعدك.

استغرب من صدها وجملتها، قال: وعدي!

- نعم وعدك.. طلاق مريم.. إلى متى ستظل متمسّكاً بها!

صمت لحظة.. تأمل جسدها العاجي ثانية وحاول استرضاءها.. قال:

- أنا لم أعدك، وأذكر أني قلت سأفكّر بالأمر.
- أنت تماطل، وأنا أصدقك.. وأضافت بدلال: لماذا متمسك بها!.. هل هي أجمل مني!؟

نظر إلى وجهها مباشرة وقال:

- اسمعي يا عزيزتي.. هذه الأعمال لن توصلك إلى نتيجة، أنا على استعداد أن أعمل كل ما يرضيك شرط أن تنسي موضوع الطلاق.

قالت: لن أشعر بالسعادة معك إلا بعد طلاقها. وقامت وجلست على ركبته، وعندما حاول ضمها بين ذراعيه أضافت بغنج: لا تحاول أن ترضيني بقبلة لا طائل منها، أحب أن تكون لي وحدي.

- وما يهمك من أمرها، طالما أنا عندك.
- أخاف أن تتركني وتعود إليها، ولا تنس أنك عشت معها عشرين عاماً.. والعدل أن تعيش معي مقابل ذلك عشرين عاماً مثلها.

ابتسم وقال: ما هذه الأفكار الشيطانية!

- قل عني ما شئت، لكن احسبها يا حبيبي، عشرون عاماً معها، وعشرون عاماً معي، هذا هو العدل.. أما إذا عدت إليها، فيوم هنا ويوم هناك.. فماذا يبقى لي إذا أخذتْ مني نصف عمرك الباقي.. أكون أنا أخذت الربع وهي حصلت على ثلاثة أرباع.. وأظن هذا ليس عدلاً.

ابتسم وقال: أنت شيطانة حقاً.. كيف توصّلت لمثل هذه الأفكار!؟

- خذني على قدر عقلي.. المهم أن تبقى لي وحدي..

اعتدل في جلسته وقال: إذا أردت الحقيقة، فأنا لن أطلق مريم إلا إذا طلبتْ ذلك.. "إن أبغض الحلال عند الله الطلاق".

- إذن اهجرها عشرين عاماً.
- وهذا لن يكون أيضاً.. لا أفكر بالهجر ولا بالطلاق.

قال ذلك ولا يدري كيف تجرأ وقال ما قال.. فابتعدت عنه وجلست على حافة السرير، وأحست أن الدنيا على سعتها أصبحت أضيق من رقعة القبر، اقترب منها وجلس جانبها، طوقها بذراعيه، التصقت به، وألقت برأسها على صدره، قالت متسائلة:

- أنا لا أصدق أنك تحبني وتفكر بأخرى.. لا أستطيع أن أبقى معك على هذه الحالة، مجرّد ضرّه لزوجتك.. أرجوك يا حبيبي أن تفعل شيئاً من أجلي..

وتنهدت تنهيدة طويلة ثم قبّلته من فمه قبلة أطول، وانسلّت من بين يديه نحو المرآة، نظرت إلى وجهها، وراحت تمسح الدموع التي قفزت من عينيها بمنديل ورقي.. نظر إليها وقال:

- ما سبب هذه الدموع الآن!
- لا أعرف، لكني أحبك ولا أريد أن تأخذك مني أية امرأة على وجه الأرض.
- اطمئني، فلم يبق لي غيرك.

- طالما تعترف أنه لم يبق لك غيري، وتعترف بحبي، لماذا لا تشتري لي سيارة حتى أرتاح من عذاب المواصلات؟
- هذا طلب مقدور عليه، لكن ليس هذا الوقت، فأنا أمر بظروف مالية صعبة هذه الأيام.

زمت شفتيها وقالت: دائماً تتحجج بظروفك المالية!

- تعرفين أني أتعامل مع شركات أجنبية عن طريق البورصة، وتعرفين أني خسرت الكثير في الأسهم..

قاطعته: أنا أساعدك، ادفع أنت الدفعة الأولى، وأنا أقسّط باقي المبلغ من عملي!

- أنا موافق بشرط أن لا تفتحي موضوع الطلاق نهائياً.

ابتسمت وقالت بدلال: وهل هذا الشرط معقول!؟

بعد تلك الليلة، شعرت أحلام أن يوسف يحبها، ولا يخالف أمرها، خاصة بعد أن أنجبت طفله الذي فرح به كثيراً "كما اعتقدت".. فتركت عملها واستقرت في البيت لعدة أيام، أخذت تتبع طرق الغنج والدلال للتأثير عليه، وحاولت بشتى الطرق أن تختبر ذلك الحب في نفسه.

وكذلك يوسف، فعندما شعر أن أحلام تحبه حباً خالصاً بعد ولادتها، أخذ يشرع في إلقاء الأوامر، ولا يكترث بأمرها تمام الاكتراث، وكلما لمس فيها اعوجاجاً، سرعان ما يتظاهر

بالغضب أو الذهاب إلى مريم.. وكان بهذا التصرف يشعر أنها تزداد تعلقاً به، ويزداد حبها "كما كان يعتقد".

لهذا كثيراً ما اختلفا، وما إن يختلفا حتى يسرعا إلى التقارب ثانية، فيزول ذلك الاختلاف ويحل محله الوئام والتفاهم، أو يأخذان راحة لعدم الاختلاف، ويقف كل منهما على حده لا يدري ما يضمر له الطرف الآخر.

***

ذات ظهيرة، وبينما كانا يتناولان طعام الغداء، قال لها مازحاً وهو يداعب طفله:

- ستفرحين الأسبوع القادم فرحاً عظيماً.

صمتت لحظة، ابتسمت لخاطرة مرت عبر أفكارها، ثم نظرت إليه وقالت:

- صحيح ما تقول؟

- نعم، فقد وصلتني مكالمة من والدتك تقول أنها قادمة بعد أسبوع.

زالت دهشتها وحولت نظرهـــا عنه.. فوصول والدتها ليس ذا أهمية كبيرة بالنسبة لما فكرت به.. قالت: كنت أعتقد أنك ستفرحني بطلاقها.

عبس وقال بحدة: أنت لا تكفين عن هذا الطلب!

قالت وكأنها غير مكترثة بالأمر: اعمل ما تراه مناسباً.. أنا راضية بما يرضيك ويرضى به ضميرك.

وكاد يتحول حديثهما إلى شجار، لكنه كظم غيظه وخرج من البيت.

***

رياح الخطيئة

حامت طيور سوداء وخيّمت على بيت يوسف جاسر الفهد منذ أن ارتكبت عفاف خطيئتها، وكتمت مريم الخبر عن يوسف وعن أفراد العائلة حتى تجد الحل.. ولم تغادر عفاف غرفتها، فقدت شهيتها للطعام وساءت صحتها، وظلت مستلقية في فراشها كمن هو في غيبوبة، لا تطلب شيئاً، ولا تنتبه لأحد، ولا تعي شيئاً مما يدور حولها.

وكان خطيبها يغادر المنزل كلما واتته الفرصة لزيارتها يائساً مقهوراً.. وأشد ما كان يقلق الحاجّة أم حسن ويؤرقها، أن كل أساليبها وفنونها ووسائلها التي طالما ساعدت الآخرين، لم تُجد نفعاً مع عفاف.. وهمست تحدث نفسها "لقد أعارنا

الشيطان هذا الغريب على ما يبدو، وأنه سبب بلاء عفاف".. وأخيراً أقنعت نفسها أن سحره تغلب عليها، وقهر سحرها، وعليها أن تجده وتجبره على الزواج من عفاف.

ذات مساء، وبينما كانت الحاجّة أم حسن تنظر من نافذة غرفة عفاف، خُيّل لها أنها شاهدت الغريب من بعيد واقفاً قرب محل تجاري في الشارع العريض، وعيناه مصوبتان نحو النافذة تضيئان كجمرتين، هذا ما أقسمت عليه أمام مريم، وأكدت أن القصة لم تكن من بنات أفكارها.. لكن "نايف" لم يظهر ثانية واختفى عن الأنظار.

ذات ليلة، وبينما كان يوسف خارج البيت، أخذت عفاف تصرخ وتتألم، ما دفع والدتها إلى استدعاء طبيب خاص يقيم في الضاحية، وبعد الفحوصات تبين له أنها أخذت كمية من الحبوب المنومة في محاولة للانتحار، فقام بإسعافها وأجرى لها عملية غسيل معدة، كما تبين له أنها حامل في الأشهر الأولى، وعندما سأل عن زوجها، تلعثمت والدتها مريم وقالت إنه مسافر، فكتب لها بعض الأدوية، وحمد الله على سلامة الجنين..

ومع أن مريم أخفت خبر استدعاء الطبيب لابنتها عن زوجها يوسف، إلا أنها أفشت سر عفاف للحاجة أم حسن، وطلبت منها المساعدة حيال هذا الأمر.. وعلّق يوسف قائلاً أنه

يخشى أن تكون حالة عفاف ومرضها تخوفاً من نتائج الامتحانات.. وأيدته مريم والحاجّة أم حسن في ذلك.. وكانت مريم والحاجة أم حسن تأملان أن تعود عفاف لحالتها الطبيعية، وأن يعود كل شيء في النهاية إلى الأحسن بعد أن تجدا طريقة تتفادين فيها الفضيحة.. لكن حالة عفاف ساءت أكثر.. وما بين فترة وأخرى كانت تصحو.. تقوم وتتمشى وكأنها في حلم، ثم تعود إلى النوم.

في ليلة تالية، جلست شقيقتها بسمة على طرف سريرها، وسألتها عن حالها وعـن سبب التغيـــر الـــذي طرأ عليها.. لكن عفاف نظرت إليها بشرود ولم تجب.

- عفاف، أحب أن أقول لك شيئاً، لكني لا أجرؤ على ذلك حتى لا أسبب لك الإزعاج.

هزت عفاف رأسها وقالت برقة: تحدثي يا بسمة، أنا مصغ إليك.

- في أمسيات أحد الأيام، وقبل أن يختفي نايف..

تحركت عفاف في سريرها واعتدلت، أمسكت يد شقيقتها وتساءلت بانفعال:

- اختفى! متى، وأين ذهب؟
- اختفى منذ مدة، ولا أدري أين ذهب؟

- كيف اختفى السافل؟.. لقد وعدني.. ولم تكمل جملتها، استلقت ثانية على السرير وأخفت وجهها بين راحتيها، بينما أخذت بسمة تنظر إليها بدهشة واستغراب.. قالت:
- اسمعي يا أختي حكايتي، ولا تغضبي مني.. أنا لا أعرف مدى علاقتك بهذا الرجل، وستغضبين لأني تحدثت معه.

قالت عفاف: أنت تكلمت معه! ونهضت جالسة في فراشها بسرعة.

- نعم تحدثت معه بعد أن التقينا في زقاق جانبي، كان يتجول حول بيتنا.. استوقفني وقال إنه يعلم بمرضك وسبب اختفائك.. ثم طلب مني أن أبلغك أنه ينتظرك حيث كان لقاؤك الأخير معه في المزرعة، وإنه لن ينسى وعدك إياه باللقاء ثانية.. خمّنتُ أن بينك وبينه وعد أو علاقة أو قصة من نوع ما، لكني واثقة أنه كاذب، وأنك لن تتصرفي بمثل هذه الحماقات.. أخبرته أني سأبلغك ما قال حتى ينصرف بسرعة، والآن وقد اختفى..

قاطعتها عفاف: كفى يا بسمة، أنت لا تعرفين شيئاً.. وتمددت في سريرها، غطت رأسها بالحرام وأضافت: والآن اتركيني لأنام، اذهبي إلى سريرك، أنا تعبة ونعسانة.

عدلت بسمة الوسادة تحت رأس شقيقتها، وقامت إلى سريرها.

***

لم ينم يوسف تلك الليلة، ظل ساهراً يفكر بأمر عفاف والحالة التي وصلت إليها.. بعد منتصف الليل قام وولج غرفتها.. أسرعت مريم ولحقت به.. وقفت قرب سرير ابنتها وأخذت تتشاغل بفراشها.. تكورت عفاف في سريرها وأخذت ترتجف.. تأمل يوسف وجه ابنته فرآه شاحباً، قال على مسمع زوجته إنه سيعرض عفاف على الطبيب صباحاً، أو ينقلها إلى المستشفى.. رجفت عفاف ثانية، وأصابتها قشعريرة، وفي أعماقها تأكدت أن سرها الذي خبأته طوال الأيام السابقة سينكشف للجميع.. وعلى الرغم من إدراك مريم أن سر ابنتها عفاف سينكشف عاجلاً أو آجلاً، إلا أنها سرعان ما ولجت غرفتها وتظاهرت بالنوم.

استيقظت مريم صباحاً وأسرعت إلى حجرة ابنتها عفاف، فوجئت بعدم وجودها في السرير، زاد خفقان قلبها، أسرعت وجالت أنحاء البيت لعلها تجدها في مكان ما.. لكنها لم تجد لها أثراً.. ضاق صدرها ببرودة كئيبة، وأسرعت إلى أم حسن تسأل فيما إذا كانت عفاف ذهبت إليها، لكنها لم تكن هناك

أيضاً.. عادت وأيقظت يوسف الذي كان نائماً في غرفة مكتبه على عجل، قالت إنها بحثت عن عفاف في كل مكان من البيت ولم تجدها.. هبّ يوسف من فراشه وأسرع إلى غرفة عفاف.. دار أنحاء البيت من جديد.. تساءل في قرارة نفسه "أين اختفت!؟".. وراح مع زوجته مريم التي بدا وجهها مثل ورقة خريفية صفراء يبحثان عنها من جديد.

انتشر الخبر خلال نصف ساعة بين الأهل، حضر جدها جاسر الفهد، كما وصل خطيبها مسرعاً، بالإضافة إلى الحاجة أم حسن.. وحين لم يجدوا لها أثراً، خرجت الحاجّة أم حسن عن صمتها وقالت "أعتقد أنها تبعت أثر الغريب".

وفي الحال دار لغط بين أفراد العائلة حول سبب اختفاء عفاف، وراح كل منهم يخمن بما يجول في ذاكرته.. لكن أم حسن أكدت أقوالها، وأخذت تقص عليهم شيئاً مما صارحتها به عفاف.. وكذلك تحدثت بسمة عما أفضت به مساءً لها.. وحينما أضيفت الجملة إلى الجملة وتجمعت الأقوال، وضح للجميع أن عفاف هربت مع نايف ولحقته إلى الأغوار صوناً لعرضها وخوفاً من والديها، وصبوا جام غضبهم على الحاجة أم حسن لتكتمها على الخبر منذ البداية.. لكنها قالت بكل ثقة ليوسف:

- أنا لا أضع اللوم على عـــفـــاف، لأنـــــهـا ضعيفة لا حول لها ولا قوة، كان الواجب أن تقف بجانبها وتسألها عن سبب مرضها وانعزالها، لكن فات الوقت الآن.. وما دام هذا الرجل يريدها، وهي تريده، فستظل تتبعه حتى لو عثرتم عليها، وعدتم بها إلى البيت.

فجأة، راحت قسمات يوسف ترتعش وبدا الغضب في عينيه مثل الجمر.. تصادمت الأفكار في رأسه أشبه بشتيمة وعار، بدت الأحداث بلون رمادي، وأقسم في دخيلته أن يغسل عاره بيديه.. ومع ذلك أخفى ما في سريرته وقال: على أي حال هذا ليس وقت كلام، المهم أن نجدها، وبعدها يفعل الله ما يريد.

وقال ابنه خالد الذي كان يستمع لكل ما قيل مذهولاً "لا بد أن نغسل عارنا بأيدينا".

أما الحاج جاسر الفهد فقال: يجب أن لا نتسرع في مثل هذه الأمور، كما يجب كتم السر حتى نجدها.. ثم نظر إلى خطيبها وأضاف: وأنت انس أمرها.. لن تكون حليلة لك بعد اليوم.. وسنعيد لك المهر كاملاً غير منقوص.. ويسعدني أن تبقى ابناً لي، لكني لا أرغمك على ذلك.. أما إذا وجدناها، فاعمل ما يشير به عقلك وتفكيرك.

كان الجميع في حالة ذهول وغضب، وقفوا وكأن على رؤوسهم الطير لا يدرون ماذا يفعلون.. فأضاف جاسر الفهد:

- اتركوا الأمر لي، أنا أعرف كيف أجدها، ولا بد أن يكون قد شاهدها أحدهم، أو لحقت بالغريب إلى الأغوار.

قال ذلك، وطلب من أفراد أسرته أن يتكتموا على خبر غياب عفاف حتى عودته، وقام على الفور، شد رحاله وقصد الأغوار للبحث عن حفيدته الهاربة.

***

وصل جاسر الفهد مزرعته، فوجد ابنه يوسف قد سبقه إليها، وحين لم يعثرا على عفاف، سأل جاسر الفهد عمال مزرعته فيما إذا كان أحدهم شاهد فتاة تدخل المزرعة أو تقترب منها، فلم يجب أحدهم بالإيجاب.. عندئذ غادر يوسف المكان إلى المزارع المجاورة، وأخذ يسأل عمال المزارع عن شخص بمواصفات الرجل المطلوب، فقال أحد المزارعين أنه شاهده أكثر من مرة، لكنه اختفى منذ مدة ولم يظهر له أثر..

قبل الغروب عاد يوسف إلى المزرعة ثانية، واقترح على والده بصواب العودة إلى عمان، والذهاب إلى مركز الأمن لتقديم بلاغ عما حصل مع عفاف.. لكن والده رفض الفكرة، ولم يرد أن تكون له علاقة بالشرطة والأمن، وقال لولده يوسف "أنه لا يريد فضائح أكثر من ذلك، ولا يريد للصحف أن تتدخل في الأمر، وتنشر الخبر ليعرف به القريب والبعيد..

كما لا يريد أن يُقبض على حفيدته كفتاة عاصية وغير شريفة، ويشيرون إليها بأصابعهم".. وأضاف: "لا بد أن نجدها، وعندها سنجد الحل.. وبدون إرادة الله لن تسقط شعرة من رأسها.. إذا قدر لها أن تعود فستـعــود بلا ريب، وإن لم يكن، فهذا أمر الله.. لن نذيع اسمها في الدنيا، ولن نشوّه صورة العائلة".. وكان هذا قراره الأخير.

***

صباح اليوم التالي، حمل أحد المزارعين خبراً مفاده أنه رأى قرب المزرعة فتاة متوسطة الطول وشعرها أسود اللون.. واستطرد يحدث يوسف قائلاً أنه سمع عن حكاية الفتاة من المزارعين وعرف مواصفاتها.. وأضاف أنه لاحظ كهفاً مهجوراً في نفس المكان تخفيه أشجار ثلاث من الصنوبر، وتغطيه الأغصان والأعشاب.. وعندما دقق يوسف النظر بداخله وجده لا يتسع لأكثر من شخص واحد، ولم تكن عفاف هناك، لكنه وجد فراشاً من القش والحشيش الجاف.

وقال مزارع آخر أنه شاهدها تجلس تحت شجرة قرب النهر، وقد ضمت ركبتيها بيديها وأسندت ذقنها إليهما، وجلست وهي تطيل النظر نحو المجهول.. وعندما حاول الاقتراب منها قفزت مسرعة واختفت بين الأشجار.

أسرع يوسف إلى ذلك المكان، وتجول في كل الأنحاء حتى المساء، لكنه لم يجد أي أثر يرشده إليها.. دار حول المزارع المجاورة وراح يبحث من جديد، وعندما عاد إلى مزرعته مساء، شاهد الأرض بلون رمادي داكن، وأدرك أنه فقد ابنته إلى الأبد بعد أن لوثت شرف العائلة، وانتشرت قصتها بين المزارعين.. وفي قرارة نفسه تمنى لو أن الله أخذها قبل أن تغادر البيت.. وتساءل على مسمع والده "ما العمل!".. فقال جاسر الفهد "لا بد من البحث المتواصل حتى نعثر على جثتها، أو ترجع إلينا على قيد الحياة".

***

في الليل، وبينما كان أحد المزارعين يسهر مع رفاقه، شاهد عفاف تجلس هادئة وديعة بلا حراك قريباً من غرفته، اقترب منها بكل هدوء، وبصوت هادئ طلب منها أن تعود وتنام في البيت، وأكد لها أنه لن يمسها أحد.

نظرت عفاف إليه وتركته يقودها إلى البيت المقام في المزرعة، وحين شاهدت والدها، انتزعت نفسها من بين يدي المزارع وولت هاربة، إلى أن شاهدت جدها جاسر الفهد، فاستسلمت لذراعيه وأخذت تبكي، كانت شاحبة الوجه ضعيفة، ترتدي ثياباً متسخة وبالية، ركض يوسف نحوها.. شعر

بأحاسيس حيوانية عنيفة تجتاحه، التصقت بجدها وراحت ترتجف، اكفهر وجه يوسف وعبس، ولاحظ جاسر الفهد أن يوسف يحمل بندقية صيد بين يديه ويهم بإطلاق النار عليها، فطوقها بذراعيه وصرخ على ولده أن يهدأ.. ازدادت أنفاسها تهدجاً واستسلمت لذراعي جدها، لم يستطع يوسف السيطرة على نفسه، وراح يركلها بقدمه، ثم خر راكعاً على ركبتيه واستسلم لأوامر أبيه.

وعلى ضوء مصباح خافت، قادها جدها إلى غرفة جانبية في المزرعة، وقدّم لها طعاماً.. فجلست عفاف منكمشة على نفسها، مسحوقة ومستسلمة لقدرها، أحنت رأسها إلى الأمام وقد رفعت ركبتيها إلى ذقنها، وعقدت ذراعيها فوق ثدييها، وعندما شاهدها بهذه الحالة المزرية، أغلق عليها الباب، وقاد ولده إلى الخارج، وطلب منه أن يعرضها صباحاً على طبيب، لكن يوسف رفض الفكرة، وجالت بذاكرته فكرة الخلاص منها.. وحين عرف والده ما يدور في خلده، طلب منه أن يكتم سرها ويخفي خبر وجودها في المزرعة عن والدتها وعن كل أفراد العائلة، ولا يؤذيها حتى يجد حلاً ويفعل الله ما يريد، كما طلب من الحارس الذي يقيم في المزرعة مع عائلته أن يقدم لها الطعام والشراب ويحافظ عليها كفرد من أفراد عائلته، وأسرّ له

أنها تعاني من أمراض عصبية، ولا يرغب أن يطّلع عليها أحد، وأوصاه أن لا يخبر أحداً بوجودها في المزرعة.

***

رسائل من الماضي

لازم يوسف أحلام لعدة أيام خشية أن يراه أحد معارفه، خاصة بعد أن ذاع خبر هروب عفاف بين الأهل والأقارب.. أما قصته مع أحلام، فقد أحس أن الجميع عرفها تفصيلاً.. فهو يعرف مريم كما يعرف لسانها السليط عندما تثور وتغضب، وتنشر أخباره بالتفصيل الممل عند الأقارب.

وخلال مراجعته لما حدث معه، استعرض ما آلت إليه الأمور مع ابنته عفاف، وحمد الله أنه لم يتسرع في قراره بالخلاص منها، فلو حدث ذلك، لملأت الشائعات الصحف،

وقادته النتيجة إلى السجن.. حدث نفسه بذلك، وترك لنفسه الوقت الكافي ليجد طريقة للخلاص منها..

عاد وتذكر مريم، استعرض حياته الزوجية معها، وعاد بذاكرته إلى يوم زفافه عليها.. هاجمته ذكريات ميتة، لا، الذكريات لا تموت، "حدّث نفسه"، ذكريات مختلطة وملتبسة، لكنها حاضرة إلى حد أنه لا يستطيع نسيانها رغم ضبابيتها.. وأضاف أن يوم زواجه منها كان يوماً أسود، وتمنى لو سمع نصيحة والدته عندما نصحته بعدم الزواج منهـــا.. وجـــال بخـــاطره أن العشاء الذي أقامه خاله على شرفهم كان مدبراً لاصطياده، وجلس ساهماً مسترجعاً لتلك الأيام، حيث أيقن خلالها أنه جُرّ دون أن يدري إلى قارورة العسل المليئة بالدبابير.. يومئذٍ، لم يلتفت للجوهر، ولم يكن يعرف ما معناه، وانقاد خلف المظاهر، بعد أن لبى مع والديه دعوة العشاء التي أقامها خاله يوم عودتهم من السفر.

وما حذرته منه والدته لم يأخذ وقتاً طويلاً.. فما أن استيقظ صباح اليوم التالي من زواجه، ومدّ يده إلى جيبه ليأخذ النقود التي قدمها له الأقارب والأصدقاء يوم زفافه، حتى وجد جيوبه فارغة، وقالت مريم بجرأة نادرة إنها أخذت النقود، لأنها من حق العروس.. ومع أنه ذُهل من تصرفها عندما رفضت أن

تعطيه بعضاً منها، إلا أنه غض الطرف، وابتلع على مضض السهم الأول في حياته الزوجية.

في الصباح، أحضرت والدته طعام الإفطار، تذمرت مريم ورفضت أن تفتح لها الباب، وأضافت على مسمع والدته بعد أن فتح زوجها يوسف الباب وتناول طبق الطعام من والدته "هل سمعت عن عروس تأكل في يومها الأول من يد حماتها؟".. فقال "وكأنك نسيت أنها أمي، المفروض أن تستقبليها وتشكريها على صنيعها"..

عند الظهيرة عاودت والدته الكرّة، وضعت طبق الطعام عند الباب، وطرقته قائلة "الغداء يا عرسان".. ولم تنتظر حتى يُفتح الباب بعد أن سمعت ما قالته مريم في الصباح.

في اليوم التالي أحضرت والدته لهما لحماً وخضاراً مع كل مكونات الطبخ وقـــالت لمـــــريم "اطبخي لك ولزوجك".. وقفت مريم مائلة ووضعت يدها على خصرها مستندة على الباب، وقالت:

- يا عمة، هل رأيت عروساً تطبخ!

لم تجب عمتها، وانسحبت نحو بيتها، فقال يوسف:

- إذا كنت لا تريدين الأكل من طعام أمي، ولا تريدين الطبخ، فماذا تريدين!؟
- أريد تذوق الطعام من يدي أمي.

قال: كان هذا قبل الزواج، أما الآن فأنت سيدة المطبخ والبيت.

ومع أن يوسف رفض طلبها، إلا أنها أصرت على رأيها، ولثلاثة أيام بلياليها لم تأكل مريم غير الشيء اليسير.. فنادى والدته وأخذ يصرخ بجنون "ماذا أفعل؟".

قالت مريم بكل برود: العرسان يأكلون في المطاعم.

وفي الحال نقدته والدته مبلغاً من المال، وقالت "خذها إلى أي مطعم واسترنا، قبل أن يقول الناس ماتت من الجوع في بيت زوجها".

وكعادة الناس، ومنذ الأسبوع الأول، بدأ الأقارب يتوافدون على بيت العروسين للمباركة وتقديم الهدايا، لكنها لم تفتح الباب لأحد منهم.. استفسرت عمتها عن السبب، ردت قائلة "الناس لا تحمل معها غير المشاكل، كلامهم كثير ولا يأتي منهم غير خراب البيوت".

ومنذ أن سافر يوسف وحيداً عائداً لعمله في المملكة السعودية مع والده، أغلقت باب بيتها، ولم تفتحه إلا للضرورة القصوى.. وبدا أولادها غرباء عن أقاربهم وعن مجتمعهم العائلي.. وكان يوسف يغدق عليها الأموال، فتقتّر في المصروف، وتخفي ما

تبقّى لتصرفه على علاجها من الأمراض النفسية التي أخفتها عن مسامع وعيون العائلة.

شعر يوسف أن حياته العائلية تسير نحو الهاوية، وتبيّن له أن قلبه لم يعرف الحب ولا الحياة الزوجية الطبيعية مع مريم منذ يوم زفافه.

بلع ريقه وعلق محاولاً أن يرضي ضميره "لقد تعبت مع مريم كثيراً، ومع أني مددت لها جسور الود كثيراً، وحاولت الحفاظ على العلاقة الزوجية التي لم أهنأ فيها يوماً، إلا أنها رفضت.. وهذا لا يعني أن أتخلى عنها، كما أني لن أتخلى عن أحلام.. أحلام هي التي أعادتني للحياة، وولّدت في قلبي شعلة الحب الحقيقي".

***

في المساء، وأثناء وجوده مع أحلام في غرفة واحدة، وجد رغبة شديدة نحوها أكثر من السابق.. وكان كلما ازداد نفوره من مريم، يزداد تعلقاً بأحلام.. وكانت أحلام تعرف نقاط ضعفه، وتعرف كيف تُلهب مشاعره، وتُشبع نواحي النهم فيه.. أيقنت أنه أصبح لها وحدها.. وما إنْ اقترب منها حتى طوّقته بذراعيها وغمرت رأسه بصدرها، تسللت يداه وحلت أزرار قميصها، وساعدته في نزعه عن جسدها، توقفت يداه لحظة بحساسية فائقة على ظهرها العاري، تحرك وراح ينزع ملابسه ويضعها على المقعد.. قال "أتمنى رؤيتك وأنت ترتدين قميص النوم الأحمر".. شعرت بالحياة في كل جزء منها وهو

يتمعن في عريها، كان يلذ له السفر في عينيها الخضراوين وجسدها العاجي، قال لها وقد اقتحمت رائحة عطرها عالمه وتوغلت في أنفاسه "كل يوم تزدادين جمالاً".. نظرت إليه واسترخت على السرير، أضاف "يقال إنَّ المرأة تشبه اللوحة الجميلة، وعلى الرجل أن يكون فناناً ويكتشف مواطن الجمال في هذه اللوحة".. ابتسمت وأشارت له أن يقترب منها.. شعر بشبابه يعود إليه من جديد.. وازدادت رغبته فيها عندما أحس بعدم وجود غريزة معرفة ماضيه عندها.. فلم يسبق لها أن سألته شيئاً عن تلك الأمور، كما لم تطلب منه الظهور معها علناً أمام أعين الناس.

حدّث نفسه "هذه أحلام التي انبثقت في حياتي بلا مقدمات، أنا الذي هويت وأوغلت في مفاتنها، وهي التي طوقتني وغسلت غباري وعرقي وتعبي، ثم فتحت شواطئها لأنام في حضنها الدافئ".

شعر أنها سحرته، واختطفته إلى هذه الحجرة لتريح أعصابه، حدث نفسه ثانية وأضاف "حدث الأمر كما يحدث لرجل تائه في صحراء، شمس حارة، عطش، إعياء، توق للظلال والشجر، ثم فجأة هذا الينبوع في هذا الوعر".

ومع أنه كان يرغب في أن تسأله ليخبرها الكثير عن طفولته، عن دراسته وعن المدرسة العباسية الذي أنهى فيها دراسته الابتدائية، وعن

تعلقه بالرسم وهو في العاشرة من عمره، تارة يقلد هذا الرسام وتارة ينسج على منوال ذاك.. وكيف كان يفضل رسم الطبيعة التي استحوذت على أفكاره، صحراء جافة، شواطئ شديدة الانحدار، جبال جرداء.. وزملاؤه يضحكون من رسوماته، ما اضطره إلى الاعتزال عنهم والانطواء على نفسه.. وقبل أن ينهي دراسته المتوسطة في مدرسة الأمير حسن في جبل الجوفة، أقلع عن الرسم موقناً أن المرء مخيّر بين أمرين، إما أن يجيد عمله كل الإجادة، أو يقلع عنه ولا يعود إليه.

وكيف كان أثناء دراسته الثانوية في مدرسة رغدان في جبل الحسين، يطالع كتب التاريخ التي استهوته دون تفريق بين غثها وسمينها، بينما استعصت الكتب الأخرى على فهمه..

وكيف وقف مع المدافعين أثناء حصار بيروت التي استعصت على القوات الغازية أكثر من ثمانين يوماً.. وكيف أصيب بطلق ناري في ساقه، وخرج مع المقاتلين عائداً إلى عمان..

وكيف التحق بالعمل مع والده في السعودية، وكيف تعرف على مريم، إلى أن عاد إلى عمان ثانية، وعمل في التجارة.. نادماً أنه لم يواصل دراسته حتى ينال الشهادة الجامعية.

وكان يرغب في أن تسأله عن والدته التي طحنها هجر والده بعد أن تزوج عليها من امرأة ثانية بدافع تحسين النسل.. وعن أبيه، ذلك الرجل العصامي، والمقاول النشيط الذي جمع ثروته بعرق جبينه.. وعن أخيه ناصــر.. وعن أعماله وعن تجارته، وعن البلاد التي زارها، والتي يرغب في زيارتها..

ومع أنها لم تسأله عن شيء، ولم يقل لها شيئاً من هذا أو ذاك، إلا أنه مكث ساعات طوال ساهماً يُقلّب الأمور في ذاكرته، ويحدثها عن أحلامه التي تحقق منها والذي لم يتحقق.

ومع أنه كان حذراً من أن يعرف الناس أخباره العائلية، إلا أنها انتشرت بسرعة البرق بين أصدقائه ومعارفه وأقاربه، عرف الجميع أنه هجر زوجته مريم وتزوج من غيرها، كما عرفوا أن ابنته عفاف هربت ولم تمت كما أشيع، وكان من بينهم العاتب والعذول، وآخرون لم يكترثوا للأمر وعدّوه شيئاً خاصاً لا دخل لهم فيه، لهذا تجنّب كل معارفه، ولم يعد يتمكن من النظر بشجاعة في عيني أي إنسان.. وعندما عاد إلى عمله ومارس حياته الطبيعية، تجنب الإجابة عن أي سؤال يُطرح حول هذا الموضوع.

***

ذات ليلة، دعاه أحد الأصدقاء هاتفياً للسهر في بيته، فقال صراحة: "الواقع أني وزوجتي نعيش بعيدين عن بعض في الوقت الحاضر".

وما إنْ سمعت أحلام كلمة "في الوقت الحاضر" حتى رددتها أكثر من مرة بينها وبين نفسها، واعتقدت أن لدى يوسف فكرة أو أمراً يود الإقدام عليه.. فوقعت تلك الكلمات في نفسها موقعاً سيئاً، وراحت تفكر بطريقة ما تدفعه للظهور معها علناً أمام الناس.

***

ذكريات حية

تعب جاسر الفهد وعاوده المرض مجدداً، وحين زاره الطبيب همس ليوسف بأن والده يعيش ساعاته الأخيرة، ولا داعي لنقله إلى المستشفى.

تجمع الأهل والأقارب حول سريره في بيت ولده يوسف.. جميلة كانت حاضرة.. أخذت تنوح وتندب حظها.. قالت أن القدر لم يكتف بأخذ ابنها ناصر، حتى راح يطارد زوجها في

فراشه.. نظرت إلى زوجها فوق السرير الذي يتوسط الغرفة وبكت، ثم خرجت وجلست على مقعد قريب وأخذت تبكي من جديد.

عند المساء، استعاد الحاج جاسر الفهد وعيه لدقائق معدودة، دارت نظراته في أرجاء الغرفة، وتوقفت عند أنجاله وأحفاده وزوجتيه، حرك يده وحاول مدها نحو يوسف، قبض يوسف عليها وشد عليها بحنان.. كانت خشنة الملمس باردة.. حاول والده أن يقول شيئاً.. ارتعشت شفتاه، وبدا وجهه شاحباً.. لم يقل شيئاَ، وغرق في صمت عميق.. ظلال غيوم داكنة ربضت على جدران الغرفة، وحجبت عن عيني يوسف الرؤيا.. وسمع والده يلوم نفسه ويقول بكلمات متقطعة "الدنيا فانية، لا تدوم لأحد، وكان بودي أن أرى أفراد العائلة يُبحرون في سفينة واحدة وعلى قلب واحد".. وأضاف بعد لحظة صمت "نحن لسنا ملائكة نقيم في السماء، نحن بشر، نجتهد، نصيب ونخطئ".. وتمتم إذا كان سبب بلاء الأسرة هو الزواج من امرأة ثانية!.. ثم ضغط على يد يوسف وأضاف بصوت خافت "لماذا سبقني ناصر إلى الموت، ولماذا أصيبت عفاف بهذه المصيبة"، وتحجرت دمعة في عينيه.

نظر يوسف إلى وجه أبيه ثانية، شاهده ضعيفاً وبلون ورقة صفراء ذابلة، تناول منديلاً ورقياً ومسح عيني والده ووجهه، وتركه يرحل عبر غفوة قصيرة.. تمتم يوسف وكأنه يحدث نفسه "المريض أو فاقد الوعي لا يتألم ولا يعاني كما يعاني ذووه، ربما كان غارقاً في أحلام وردية سخرها الله له لطفاً به، لكن يتألم محبّوه من حوله، ويعيشون كوابيس فراقه".. وجلس قرب سرير والده، غرق في بحور ذاكرته، وراح يستعيد حكايا والده وأيام شبابه من جديد..

(كان يوسف صغيراً، وكان يرى وجه أبيه جاسر الفهد مليئاً وبلون العسل المحروق.. أما قامته فكانت مملوءة أقرب إلى الطول منها إلى الاعتدال، ودائماً كان يلبس قمبازاً مخططاً بخطوط فضية مع كوفية بيضاء وعقالٍ أسود.. كان والده يشده من يده ويصطحبه معه قبل أن يبلغ التاسعة من عمره إلى مدينة القدس، والمسجد الأقصى.. يومئذٍ مكث والده يصلي طويلاً تحت قبة الصخرة وقرب المغارة، والناس يتفيؤون قرب المسجد الأقصى تحت أشجار الزيتون القديم المغروسة في الجهة الشرقية، وكان هناك نساء حاسرات الرؤوس وأخريات يضعن أغطية على شعورهن لأداء الصلاة خارج قبة

الصخرة.. شباب وصبايا ينتحون جانباً لقراءة القرآن وآخرون يختلون، شباب وشابات وصبايا يتلاحقون ويتضاحكون.

وكان يتراءى له وجه أبيه يملأ المكان والزمان، وما زال يوسف يحفظ كلمات والده التي كان يرددها دائماً عن ظهر قلب "يشعر المرء أنه سجين خارج وطنه، مقيد بسلاسل، وطوق من الذكريات تتشابك في رأسه، يختلط نهاره بليله، ويشعر أن إحساسه بالمواطنة منقوص دائما".

أما في سنواته الأخيرة، فكثيراً ما غرق والده جاسر الفهد في أمواج بحر شروده، غلف الحزن قلبه وامتزج بأحداث الماضي والحاضر.. خبر موت ابنه ناصر صدمه وصعقه، وكثيراً ما كان يزوره في أحلامه، "كما كان يقول"، اختلس منه البسمة وأمده بموت بطيء، وأحس أنه كبر مائة عام.. تبلورت أحلامه وتراجعت إلى الوراء، ركن في بيته واستسلم لشيخوخته، راح يتلعثم، ولم يستطع إخفاء صوته المخنوق الذي صار يقطر وجعاً مع كلماته.. وكثيراً ما شاهد يوسف والده يطوح نظره في اللاشيء تائهاً شارداً من واقعه، استسلم لزوجته جميلة، وسلمها زمام أمره لتقوده حيث تشاء، احدودب ظهره وراح يدب على عصا، يشتمّ تلك الرائحة المميزة لخبز الطابون الساخن، ويتمنى أن يعود له دمه المسقي بزيت الزيتون والمجبول بالزعتر.. أما روحه، فكانت هائمة تتطلع

دائماً إلى أرض الوطن.. وحين كان ينظر إلى الغرب، يتذكر قريته الفلسطينية التي ولد وترعرع فيها، فذاكرته ما زالت تحتفظ بشعابها كما تحتفظ أنفاسه برائحتها، وكما يحتفظ جسده بدمائه.. تتراءى له جبالها ووديانها، سهولها وأشجارها، عصافيرها وبلابلها، دودها وطيورها، حتى ذئابها وكلابها.. يشتاق إليها، ويتوق لها، ويتمنى أن يتعايش ثانية معها.. يغلي في صدره الحنين إليها، وينسى أنها أمست أحجاراً فوق أحجار، ركاماً وأشجار صبار).

صحا يوسف على صوت والدته تهمس في أذنه "أبوك في لحظاته الأخيرة يا يوسف، الأعمار بيد الله"..

هب واقفاً، حدق في وجه أبيه ثانية، وتساءل في سريرته "ما نفع المواجهة مع الموت، الموت هو الحقيقة التي تقهر الإنسان، وهو المحطة الأخيرة في قطار الحياة"..

أقنع نفسه بنهاية الحياة واستعد لمواجهة الموت.. "ليس الموت هو الصعب، بل الحياة هي.."، حدث يوسف نفسه ثانية، وكتم صرخة في أعماقه، وأضاف "الحياة بلا معنى أو هدف هي أدنى درجة من الموت".

كان الصمت يخيم على المكان، وعند أحد أطراف السرير وقفت والدته أمينة تمسح تعرّق جبين زوجها جاسر الفهد، بينما وقفت جميلة عند قدميه.. كانت يداه موضوعتين على صدره، وعيناه تحدقان في الفراغ، أدار جاسر الفهد عينيه فيمن حوله، ورفت ابتسامة حزينة على محياه، أراد أن يرفع ذراعه لكنه لم يتمكن، اقترب يوسف من رأسه.. حرك والده شفتيه، وتمتم بكلمات متقطعة، "أين عفاف، أريد رؤيتها.. إياك أن تتسرع وتؤذيها يا ولدي، فلا أحد يعرف الحقيقة، الحقيقة عند الله، هو الذي يعاقب ويعفو.. نحن بشر نصيب ونخطئ".. وحرك سبابته وتلا الشهادتين.. وفي لحظات قصيرة هامت نظراته في سماء الغرفة كأنها تبحث عن رفيق لها، انقطع شخيره وارتجفت شفتاه، جمدت كل حركة من جسده، اختلج، تأوه، ابيضّ وجهه وانتفض، ثم سكن الجسد وهدأت أنفاسه، شهق وفاضت روحه إلى بارئها.

قالت أمينة "سبحان الحي الباقي"، بينما ألقت جميلة بجسدها على صدره نائحة تقول "لماذا تموت وتتركنا؟".

ذرف الجميع الدموع.. وحده يوسف بقي كتمثال شمعي أصم لم يبك، ولم ينبس ببنت شفة، وهمس كأنه يحدث نفسه: "الحياة وهم كبير، أما الحقيقة الباقية فهي ما يحدث الآن، الموت".

في اليوم التالي، تم دفن الحاج جاسر الفهد في مزرعته في غور الأردن، وأقيم العزاء ثلاثة أيام متتالية، ركن بعدها يوسف إلى عزلته وصمته، وفي اليوم الرابع، وبعد أن انتهت أيام العزاء، قرر في أعماقه أن يواجه الواقع، يحرر عفاف من أسرها، ويعرضها على الأطباء.

احتضنت جميلة أولادها الصغار، وعادت بهم إلى بيتها تبكي يتمهم.. أما أمينة التي استفحل بجسدها مرضا الضغط والسكري، فقد حمحمت وهي ترقب جميلة، وكأنها تحدث نفسها "طريق تودي..".* ودلفت غرفتها تعرج على عكاز، تتذكر صباها وشبابها، وتركن إلى شيخوختها.

***

اعترافات في غير أوانها

بعد منتصف الليل استيقظت أحلام تشعر بالبرد، حاولت أن تغادر السرير لتنظر إلى نفسها في المرآة، وترى إذا ما كان وجهها يميل إلى الاصفرار أو الاحمرار أو إلى لون آخر،

* مثل شعبي فلسطيني يقال لمن لا يحبذ رؤيته ثانية (طريق تودي وما تجيب)*

لكنها لم تستطع، أحست بكابوس ثقيل من الأفكار والهموم، استعاذت بالله من الشيطان، وجلست تعيد ذاكرتها وتستعرض حياتها مع يوسف.

في قرارة نفسها كانت تعرف أنها أرادته منذ البداية لثروته، لكنها شعرت في الفترة الأخيرة بالأمومة الحقيقية بعد أن أنجبت طفلها، فأحبت ابنها كما أحبت يوسف لنفسه لا لثرائه، وأخلصت له بعد أن تخلصت من براثن الماضي.. وكانت تعرف أنَّ يوسف يحبها من كل قلبه وبكل جوارحه، وكان على استعداد أن يدفع لها كل ما يملك مقابل حبها وإخلاصها له، لكن الشكوك كانت تلعب برأسها، وكثيراً ما حدثت نفسها بأنها تشعر أن مصيرها سيكون أسوأ من مصير مريم التي هجرها ثم بدأ يحن إليها.. فجأة رنَّ جرس الهاتف وقطع حبل أفكارها.. أسرعت وفتحت الخط.. والدتها كانت على الجانب الآخر، سألتها عن حالها وحال زوجها وطفلها.. فقالت أحلام:

- آه، كم أنا مشتاقة لك يا أمي.. كنت أفكّر بزيارتك، أو العودة إلى بغداد.

تنهدت أم سعد وقالت ليس للمرأة غير بيتها وأولادها.. لكن أحلام أخذت تتذمر وتشكو حالها، فقالت والدتها:

- الحمد لله، ما بعد الصبر إلا الفرج، كيف كنتِ، واليوم كيف أصبحتِ!.. صار لك زوج وبيت وولد ومال..

قاطعتها: لا تذكّريني يا أمي بالماضي، ولا تذكري منه شيئاً ليوسف.. لكن ما يُكدّر عيشتي أن يوسف ما زال يحتفظ بزوجته الأولى.

- توكلي على الله يا ابنتي، وحاولي أن تحتفظي به ولا تغضبيه.. أنت وشطارتك، وطالما صار عندك أولاد، فما يفيدك أو يضرك إن ظلت عنده أو طلّقها.. الرجل لا يعيبه غير جيبه.
- من هذه الناحية فهو كريم، ويعطيني كل ما أحتاجه.
- الله يسعدك يا بنيتي، يوسف ابن حلال..

قاطعتها: ما أخبار أخي سعد، وكيف حاله؟

صمتت والدتها لحظة، ثم قالت بنبرة حزينة:

- الحمد لله على كل حال.. الإنسان لا يعلم الغيب، الحياة والموت في العراق مثل وجهين لعملة واحدة.. وأخوك سعد الله يرحمه كان يقاتل قوات الغزو، وفضّل الموت على الحياة.. وجدوه جثة هامدة وسط البيوت المهدمة بعد ما يزيد عن ساعتين من البحث.. السعادة ليست من نصيبنا يا بنيتي، ذهب نور عينيّ بعد أخيك، الله يرحمه.

كالصاعقة وقع الخبر على مسامع أحلام، سقط الهاتف من يدها وبكت دموعاً حقيقية، أحست باليتم الحقيقي، وتمنت لو كانت والدتها قربها لتبكي على صدرها، وراحت تذرف الدموع من جديد.

***

قبل الفجر بقليل، رنَّ جرس الهاتف مجدداً، استدارت أحلام في سريرها، وفتحت عينيها المتعبتين، وبقيت متمددة بلا حراك بين النوم واليقظة، استمر الهاتف يرن، حدثت نفسها "ربما كان هذا يوسف، لقد طالت غيبته"، أيقظتها الفكرة، نهضت واتجهت نحو الهاتف تترنح، توقف الهاتف عن الرنين، أجالت نظرها في الغرفة، كانت الستائر مسدلة على النوافذ المطلة على الشارع، وكان الجدار المقابل مهترئاً، تساقط عنه اللون الأبيض وبان الإسمنت الأسود، وقفت بجانب النافذة المطلة على جبل الأشرفية وأخذت تتأمل المنظر.. عادت وجلست على السرير، وضعت رأسها بين راحتيها، وتركت أفكارها تسرح بحرية، وجدت نفسها في جو من التأمل أقرب منه إلى الخشوع في الصلاة، فقدت غلافها الخارجي ونسيت وجودها البشري، وارتعشت شفتاها حين أكدت لنفسها أنه لم يبق لها في حياتها غير يوسف، تذكرت لقاءها الأول معه، "كان وسيماً، ومتقدماً في العمر، يملك الثروة والخبرة الكافية".. حدّثت نفسها.. شعرت بوحدة غير عادية، تمنت لو يصل وينقذها من براثن أفكارها، لفتها كآبة وراحت تنتظر

عودته بفارغ الصبر، أسبلت جفنيها، وأغمضت عينيها، تسربت إلى ذاكرتها أحداث جمة مرت في حياتها، لا تذكر إذا كانت قد عاشتها فعلاً، أو أنها من بنات أفكارها.. أضغاث أحلام.. سقطت في بئر أحلامها، وراحت تسترجع أحداثاً تقض مضجعها كلما استلقت على سريرها للنوم.. رن جرس الهاتف من جديد.. أسرعت وفتحت الخط، وبلا مقدمات سمعت المتحدث يقول:

- حصلت على رقم هاتفك من صاحبة الصالون، لا تستغربي، ولا تغلقي الخط، واسمعيني حتى آخر كلمة..

قاطعته: من المتحدث؟

- أظن أنك لم تنسي أول شخص تعرفت عليه في حياتك، أنا نايف.

شعرت باضطراب وارتجفت، استعادت نبرات صوته، وقالت بغضب: تقصد أقذر إنسان عرفته في حياتي، ماذا تريد مني!؟

- مَن يراك لا يشك أنك سيدة محترمة، فأنتِ ما زلت جميلة وجذابة.. اسمعي يا بنت الذوات.. بسببك دخلت السجن، وتشردت في الشوارع.. ومنذ أكثر من عام وأنا أتبعك وأراقب تصرفاتك، أعرف أين تسكنين، ومع أي عشيق

تقيمين.. كما أعرف بيوت الأثرياء التي تدخلينها بحجة العمل، وتتظاهرين أنك تعملين في الصالون..

قاطعته ثانية: لا شأن لك فيما يخصني، ماذا تريد مني!

- اسمعي ما أقوله جيداً، أعرف أنك أصبحت غنية، وتقيمين مع عاشق غني أعرف عنه كل شيء..
- إنه زوجي، والأفضل لك أن لا تتصل ثانية حتى لا أطلب لك الشرطة.
- لا تستعجلي على قدرك.. باستطاعتي أن أغير معالم وجهك بزجاجة أسيد.. مختصر الحديث.. أريد مبلغاً من المال أبدأ به حياتي.. وكما تعرفين أنت مدينة لي بخمسة آلاف دينار.. وأظن أن عشيقك يملك ما فيه الكفاية، فأنا راقبته وعرفته عن كثب، كما عرفت عائلته وابنته عفاف.
- أنت لم تتغير، ما زلت قذراً وحقيراً.
- لن أرد عليك الآن وتذكري ما قلته لك، وإذا لم تنفذي طلبي سأخبر عشيقك عن ماضيك القذر وحاضرك الأقذر، وأشوّه جمالك حتى لا تعرفين وجهك أمام المرآة. ثم أغلق الخط.

ارتبكت أحلام مع ظهور نايف في حياتها من جديد، وراحت تفكر كيف ستتصرف معه، فهو يعيدها للماضي الذي تريد أن تنساه.. وهي بكل قواها العقلية تحاول أن تترك الماضي كامناً في مخدعه دون حاجة لإثارته، حدثت نفسها "هذه حال الدنيا، لا يمكن للمرء أن يُكيّفها كما يريد.. والأمور لن تظل على

وتيرة واحدة".. وراحت الذكريات تطاردها، والماضي ينغل في شرايين أفكارها.. ارتجفت، أحست بالجدران تطبق على جسدها، وأنها تقيم في كهف قديم.. بدا كل شيء حولها مشلولاً، لم تستطع الوقوف، راحت أفكارها تدور في حلقات فارغة، وعبر موجة أرق.. انفلش ماضيها السحيق في عينيها، وراحت تستعيد ملامح الرجل الذي اختطف عذريتها.. أطفأت النور، وفي أعماق الظلام انبجس وجه ذلك الرجل بعينيه الجاحظتين ولون بشرته المحروقة.. فجأة شعرت بهوة تنفتح تحت قدميها، هوت، وهوت، ولم تصل إلى القاع، شعرت بحافتي الهوة تطبقان على جسدها، وفهمت أنها لن تخرج منها ثانية.. ظهر شعاع من فجوة بعيدة، شعرت بالأمل يقترب، كان هناك مصباح بنور باهت يرتعش، ونسيم الليل يحرك ستائر النوافذ، نافذة غرفتها مشرعة والضوء يشع من خلالها، أغلقت النافذة وحجبت أشعة النور، تراءت لها صور أحداث لا تدري متى وأين حصلت.. فرض الماضي حضوره وهوت فيه من جديد، راحت الصور تتقدم وتكبر أمام حدقتي عينيها، وتملأ هوة الفراغ الذي تعيشه..

(كان والدها موظفاً في إحدى الدوائر الحكومية في عهد رئيس العراق السابق، ولمواقفه السياسية المناهضة للحكم، زجّ به أتباع النظام في السجن بعد زواجه بأربع سنوات، كان خلالها قد أنجب "سعد وأحلام".. في السجن أصيب بشلل جزئي، وصار رأسه دائم الاهتزاز يميناً ويساراً إثر الضرب والتعذيب الذي تعرض له، ولم يُفرج عنه إلا قبل حرب الخليج الثانية بثلاث سنوات.

والدتها كانت أصغر سناً من والدها، وبعد اقتياد زوجها "أبو سعد" إلى السجن أصابها الجوع.. كانت تذهب في الصباح الباكر لتنظيف بعض المكاتب التي اتفقت مع أصحابها، وتتلقى مقابل ذلك أجراً زهيداً بالكاد يعيل الأسرة.

شقيقها سعد، يكبرها بثلاث سنوات، كان يعمل في مصنع للدراجات، وكان هدفه الوحيد وجُل همه في الحياة أن يحصل على حاجته من الطعام والشراب، بعد أن توقف عن متابعة الدراسة بعد حصوله على الشهادة الابتدائية.

في المدارس الابتدائية كانت كغيرها من التلميذات الصغيرات تحب العبث واللهو، وعلى الرغم من عدم نجاحها في دروسها النجاح المطلوب، إلا أنها كانت تتمتع بمقدار كبير من الذكاء والروح العالية.

في العاشرة من عمرها، التحقت بالفرقة الرياضية في المدرسة، ومارست بنشاط ملحوظ لعبة كرة السلة.. وكثيراً ما شوهدت تلعب كرة القدم مع أولاد المدرسة الآخرين في

الحارات، وفي الشوارع الخلفية التي لا تطرقها السيارات إلا قليلاً.

وفي نفس العام أيضاً، تعلمت ركوب الدراجات.. وكثيراً ما كان أخوها سعد يفتقد دراجته فلا يجدها في البيت.. كانت تركبها دون استئذان، وتذهب بها حيث شاءت.

وما إنْ بلغت الثانية عشرة حتى تغيرت كثيراً عن ذي قبل، فلم تعد تركب الدراجة إلا نادراً، كما رأت أن اللهو واللعب في الشوارع مع التلاميذ لا يتناسب وسنها.. وكثيراً ما كانت تطل من شرفة البيت، أو تقف قرب الباب لتتحدث مع ابنة الجيران، وهي فتاة في مثل عمرها تقريباً.. وكانت تحدثها عن نساء يقمن في الحي بلا أزواج، ويُدخلن الرجال إلى بيوتهن.. ثم تنتقلان إلى الحديث عن أزياء النساء وما إلى ذلك.

ذات يوم وبينما كانت تقف أمام شرفة البيت، اقترب منها أحد أبناء الجيران، وهو في مثل عمرها، يسأل عن أخيها، أخبرته بعدم وجوده، وأدارت ظهرها له، فاجأها وطبع قبلة على رقبتها من الخلف، فنظرت إليه وقدحت عيناها، وتقدمت منه تريد أن تصفعه على وجهه، لكنه هرب وأفلت منها.

وفي تلك الليلة استولت عليها أفكار غريبة طردت من عينيها النوم، نهضت من فراشها، أضاءت النور، ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها ونهديها اللذين بدءا يقفزان بوضوح إلى صدرها، أدارت وجهها وراحت تتأمل مكان القبلة في رقبتها،

ثم أطفأت الأنوار وعادت إلى فراشها، واستسلمت للنوم بعد ساعات عدة من الأرق.

في الرابعة عشر من عمرها، بدت أحلام أكثر جاذبية من ذي قبل، اكتمل نمو بعض أنحاء جسدها، برز نهداها، امتلأت وجنتاها، وأصبحت تعتني بنفسها بقدر إمكانها، لتظهر محاسن فتنتها ومواضع جمالها.

وبينما كانت مستلقية على فراشها ذات ليل، أخذت تفكر في هذا الجو الصاخب الذي يحيط بها والذي تعيشه.. فكرت في النور والدفء والأمسيات الجميلة، وصوت أبواب الحوانيت والمتاجر وهي تفتح وتغلق، وشاب يأخذها فوق حصان مجنح بلون أبيض.

فكرت في والدها الذي قضى حياته في ظلام السجن، وشاهدت بأم عينيها والدتها التي كبرت وراحت تعمل في بيوت الآخرين لتعيلها وتعيل أخاها سعداً.. وهكذا لم تترك ناحية من نواحي الحياة المحيطة بها إلا ومرت في خاطرها، ورأتها حسب تفكيرها وفهمها للحياة.

وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها، تعرفت على فتاة تقارب العشرين من عمرها، سكنت منذ عهد قريب مع عائلتها

في بيت مجاور، وكانت تعمل سكرتيرة في إحدى الشركات، ونشأت بينهما مودة وصداقة قوية.

ذات مساء انتهزت فرصة غياب أخيها عن البيت ونوم والدتها العميق، ورافقت صديقتها السكرتيرة إلى إحدى دور السينما.. وعندما عادت كانت تقفز فرحاً ونشوة، وتملؤها السعادة.

في يوم آخر، وبينما كانت أحلام تتمشى قرب حديقة مجاورة تبعتها سيارة فخمة، وراحت تتهادى قرب الرصيف على مقربة منها، اختلست النظر إلى السائق، فأومأ لها بالصعود إلى السيارة، تجاهلته وتمشت بعيداً عنه.. وعندما لاحقها بسيارته، اندفعت وفتحت الباب وقفزت بجانبه.

كان الطقس هادئاً، والشمس تميل نحو الغروب.. قاد السائق سيارته في شوارع عريضة، وسار بها فوق جسور طويلة، وهي مذهولة بمناظر المدينة التي لم تشاهدها من قبل، فجأة وجدت نفسها معه خارج بغداد.. وهناك أوقف محرك السيارة وراح يتأمل صفحة وجهها.. مد ذراعه وطوّق رقبتها، واستسلمت لقبلة عنيفة شعرت معها بادئ الأمر بنشوة لذيذة تسري في جسدها، لكن تلك النشوة انقلبت إلى كراهية وبغض خلال ثوان معدودة، أخذت تدفعه بيديها وتصرخ بأعلى صوتها، فابتعد عنها وعاد إلى مقعده خلف مقود السيارة.. أسرعت وفتحت باب السيارة وانطلقت واقفة أمامه كالحية

الرقطاء توبخه.. أدار السائق محرك السيارة وانطلق مسرعاً تاركاً أحلام مكانها.. فاضطرت إلى العودة مع سائق شاحنة، ثم واصلت سيرها إلى البيت مشياً على الأقدام.

في البيت قابلها أخوها سعد، وقبل أن يسألها عن سبب تأخرها عاجلها بلكمة على وجهها، وأخذ يركلها بقدمه حتى سقطت على الأرض.. حاولت أن تشرح له الموقف وسبب تأخرها عن البيت حسبما تريد كي تخلص نفسها، لكنه كف عن الضرب، هددها بالقتل إن خرجت ثانية من البيت، وأغلق عليها الباب.

ذات يوم، وبينما كانت أحلام تزور صديقتها السكرتيرة في بيتها، تعرفت على سيدة تبدو عليها مظاهر النعمة والثراء، قالت إن اسمها "دنيا".. قصيرة القامة، بدينة، على وجنتها خال أسود.. تُكثر من السفر إلى الأردن، وتقول إنها تعمل في التجارة.. تفرّست دنيا في جمال أحلام وحسن تكوينها، وجال بذاكرتها القصور والثراء إن طاوعتها على أفكارها، خاصة وإنها تعيش حياة فقيرة ومعدمة، وراحت تمنيها بالأحلام.. أقنعتها بالسفر معها إلى الأردن، وأغرتها بما ستجده هناك من عمل وثراء.. وخلال أيام قليلة، استخرجت لها جواز سفر، كما استطاعت الحصول على إذن مغادرة بطرقها الخاصة.. وذات صباح وبعد أن غادر أخوها سعد إلى عمله حيث فتح مخزناً

لصيانة وتأجير الدراجات، تسللت من البيت، أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يقلها إلى موقف سفريات الأردن، حيث كانت دنيا بانتظارها هناك.

***

في الأردن، وبعد أن أقامت أحلام مع دنيا عدة أيام في شقة ادعت أنها تملكها في جبل القلعة.. عادت الأخيرة ذات مساء وقالت بأن ضيفاً سيحل عندها تلك الليلة.. وطلبت من أحلام أن تستقبله بلطف، لأنه صاحب شركة كبرى، وأوهمتها أنها طلبت منه أن يوظف "ابنتها أحلام" كما قالت لها.

بعد حوالي الساعة دق جرس الباب، ودخل رجلان بدل الرجل الواحد، يحملان أغراضاً بين أيديهم.. رحبت بهما دنيا وأجلستهما في غرفة الضيوف، وطلبت من أحلام الجلوس معهما حتى تعد لهما الشراب.. وعادت دنيا بعد دقائق تحمل زجاجتين من الكحول وبعض الكؤوس، وصحنين ممتلئين بالفواكه.

جالت أحلام بعينيها بين دنيا وضيفيها، ورفضت أن تشاركهم الشراب، فقامت دنيا وأعدت لها كأساً من العصير، وما إنْ شربته حتى شعرت بصداع في رأسها، فاستأذنت ودخلت حجرة النوم،

وقبل أن تغمض عينيها شاهدت أحدهما يلج غرفتها ويغلق الباب خلفه.

قفزت أحلام من سريرها، استعادت نشاطها وتأهبت واقفة كالنمر المذعور، وكادت تصرخ، ولم تهدأ إلا عندما طمأنها الرجل أنه يرغب في الحديث معها عن العمل الذي تنتظره بفارغ الصبر.

حين أفاقت أحلام من نومها صباحاً، وجدت نفسها عارية في سريرها، صرخت بأعلى صوتها وبكت.. وانقضت على دنيا تضربها بكلتا يديها.. فهوت الأخيرة بصفعة قوية على وجهها، وقالت لها أنها لا تعرف قيمة جمالها.. بهذا الجمال ستلعب بالمال الذي حرمت منه طيلة حياتها.. ومدت يدها إلى صدرها، سحبت ثلاثة أوراق نقدية من فئة الخمسين ديناراً وألقتها على وجه أحلام.. وأضافت "خذي هذه واشتري لك ثوباً يليق بجمالك، وستعرفين أني فتحت لك أبواب السعادة والثراء".

رضخت أحلام للأمر الواقع، واكتشفت أن دنيا لا هي دنيا ولا آخرة، وإنما ظلام في ظلام.. كما عرفت أنها وضعت حبوباً منومة في كأس العصير الذي شربته تلك الليلة، وأنها تعمل في بيع الدخان

على أرصفة شوارع عمان، وتقيم في بيت الرجل الذي اغتصبها، ويدعى "نايف"، مقابل أن تحضر له بنات الليل بين الفينة والأخرى حسب طلبه.

ورغم أن "نايف" وجد لها عملاً في أحد صالونات التجميل في المنطقة الغربية من عمان، ولم يبخل عليها بما كانت تطلبه منه، إلا أنها أصرت على الانتقام لشرفها منه ومن دنيا عاجلاً أو آجلاً.

في الأيام اللاحقة، تعرفت أحلام على الكثير من سيدات المجتمع الراقي، كما تعرفت على الكثير من الرجال ممن تتوسم فيهم الغنى.. وفي أنصاف الليالي أخذت تحلم بدار فخمة وملابس كثيرة، وسيارة حديثة تتنقل بها حيث طاب لها الهوى، لتحط على الزهور التي ترغب في امتصاص رحيقها.. ومع ذلك حافظت على علاقتها مع نايف، ولم تمكّنه منها مرة ثانية.

قالت لها دنيا ذات ليلة إن "نايف" يحوم حولها ثانية، ولا يمكن أن تصل إلى الثروة التي تنشدها دونه.. وأضافت:

- أنتِ غضة الشباب، وما زلت في ربيع عمرك، وعليك أن تغتنمي فرصة هذه الحيوية والجمال لتظهري حبك له، فهو لا يريد غيرك.

زمت أحلام شفتيها وقالت: لا أعتقد أني بحاجته في الوقت الحاضر..

قاطعتها دنيا: أنت غبية.. أنا لا أتكلم عن شخص عادي لا قيمة له، أو شاب أرعن لا يعرف قيمة الجمال، ولكن عن رجل ثري يفكر فيك منذ تلك الليلة.

نهضت أحلام وكأنها لم تسمع شيئاً، واتجهت إلى غرفة النوم.. فأضافت دنيا: إذا لم توافقي سيطردنا من البيت..

ولجت أحلام غرفتها وأغلقت خلفها الباب.

***

مساء اليوم التالي، جاءها نايف بلا موعد، جلس طويلاً يحدّق بصمت في جمالها، ويعريها بنظراته، ضمت ذراعيها إلى صدرها، وأظهرت علامات من القلق وعدم السرور لرؤيته، وجلست قبالته تتبين صفاته وكأنها تراه للمرة الأولى.. رجل أسمر البشرة بعينين جاحظتين تكادان تقفزان من محجرهما، وكأنهما لم يغمضا منذ أيام خلت.. قال بلا مقدمات:

- إلى متى تتمنعين وتعاندين!؟..

بدت على وجهها علامات من الدهشة، وتعجّبت لجرأته، قالت:

- لقد خدعتني منذ البداية، لم تطرق الباب ولم تدخل منه.. ولا حل إلا بالحلال.

صمت نايف وكأنه أصيب بالخرس، توتر المكان وشُحن فجأة، قام وتمشى نحو الباب، قال أنه على استعداد أن يتزوج بشرط أن يكون زواجاً عرفياً.

رفضت أحلام، وأصرت أن يطلق زوجته أولاً ويتم الزواج علناً.. وعندما لم يبد جواباً وقفت وأضافت: إذا كنت تريدني فعلاً، اطرد دنيا من الشقة.

قال: أعرف أنها صديقتك، وتعاملك مثل ابنتها..

قاطعته: هذا شأن بيني وبينها..

وقبل أن تكمل جملتها، دار مزلاج الباب ودخلت دنيا مبتسمة.. رمقت أحلام "نايف" بعينيها، وأوحت له أن ينفذ أمرها.. تلعثم واحمر وجهه وقال لدنيا:

- اتركينا وحدنا هذه الليلة.

تغيرت ملامح دنيا، وقالت: وين أروح في الليل!

تجرأ وقال: اذهبي إلى أي مكان..

فوجئت دنيا بكلماته، وأخذت تنقّل نظراتها بينه وبين أحلام، وقالت:

- هذا جزاء المعروف يا أحلام!.. وأنت يا نايف بعد ما حصلت على ما تريد، تطردني من البيت!

رد نايف: لا دخل لأحلام في الموضوع، والأحسن ألا تعودي إلى البيت مرة ثانية.

دارت الدنيا بعينيها.. وعندما أدارت وجهها نحو الباب، رمقتها أحلام باحتقار وقالت: انتظري، خذي معك كل أغراضك، ولا تريني وجهك بعد اليوم يا قوادة.

لملمت دنيا حاجياتها القليلة من الشقة، وخرجت تقول:

- طيب يا أحلام، ما أكون دنيا إذا ما خليتك تنامين في الشارع.

تلك الليلة، خرج نايف وعاد بعد أقل من ساعة، وقد أحضر لأحلام سواراً ذهبياً وبعضاً من المشروبات والطعام.. ومع أنه سهر معها حتى الفجر، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى غايته، وراح يترع الكأس بعد الآخر..

قالت له بدلال أنها موافقة على الزواج العرفي، لكنها لن تتنازل عن مهر يقل عن خمسة آلاف دينار.. فقام يترنح وحرر لها شيكاً بالمبلغ.. تمعنت أحلام بالرقم وخبأت الشيك في صدرها، ثم تظاهرت بالتعب والنعاس.. دخلت غرفة نومها

وأوصدت عليها الباب من الداخل، وقد تملكها شعور بكراهيته وكيفية الانتقام منه.

صباح اليوم التالي، وبعد أن أفاقت من نومها، لم تجده في البيت.. وفي اتصال هاتفي معها قال نايف إن ظروفه العملية دفعته للسفر المفاجئ، وأوصاها أن لا تصرف الشيك حتى عودته، لكنها أكدت لنفسها أنه رجل مخادع ولا يُعتمد عليه، وتوجهت إلى البنك، صرفت الشيك، وأودعته في حسابها الذي فتحته سابقاً في مصرف آخر.

أيام قليلة مرت، عاد نايف بعدها إلى أحلام وهو في أشد حالاته يأساً.. أخذ يروح ويجيء في الصالة مطرقاً رأسه إلى الأرض مفكراً فيما هو مقدم عليه، يفرك يديه معاً وكأنه يغسلهما، ثم وقف فجأة وأحلام ترقبه بذهول وقال:

- ابنة الكلب.. دنيا أفشت خبر علاقتنا لزوجتي.

فغرت أحلام فاها، وفي قرارة نفسها ابتسمت وتنفست الصعداء.. فهذا ما كانت تخطط له منذ البداية.. أضاف:

- أعطني الشيك حتى أصرفه وأحضر لك المبلغ.

قالت: لقد صرفته منذ عدة أيام.

شعر نايف أنه يهوي في بئر مظلم.. قال "هذا آخر ما كنت أتوقعه"، وأسرع إلى المصرف.. فقال له الموظف أن زوجته قدمت قبل عدة أيام لتودع مبلغاً من المال.. وبعد أن سألت عن الرصيد عرفت أن امرأة صرفت شيكاً بمبلغ خمسة آلاف دينار.

ثار من جديد، وحدث نفسه "الآن فهمت لماذا طلبت زوجتي دفتر الشيكات، وألغت الوكالة الخاصة التي تمنحني التصرف بأموالها".

عاد إلى أحلام ثانية، طلب منها أن تعيد له المبلغ، رفضت، أدارت ظهرها له ودلفت المطبخ، انهال عليها ضرباً وهددها بالطرد والسجن، وخرج قائلاً إنه سيعود إليها في وقت آخر.

ما إنْ غادر نايف المنزل حتى جلست أحلام تفكر فيما تفعل..

ثم نهضت فجأة، ارتدت ملابسها، وراحت تجوب الشوارع على غير هدى، ودون هدف معين.

صباح اليوم التالي رن جرس الباب، ووقفت سيدة جميلة المنظر والقوام في عقدها الثالث قرب الباب وسألت: أنتِ أحـلام؟

تأملت أحلام وجهها وقالت: نعم ماذا تريدين؟

- أنا صاحبة هذه الشقة، وهذه ملكيتي لها.. "وفتحت حقيبة يدها وناولتها سند الملكية" وأضافت: هذه الشقة لي، ولم أكن أعلم أن "نايف" يقيم فيها بيت دعارة.

- احترمي نفسك فأنت في بيت شريف. قالت أحلام بنبرة شديدة اللهجة.

جالت السيدة بنظرها في أنحاء الشقة وهي تقف قرب الباب، وقالت باستهزاء:

- واضح أنه شريف!.. المهم أن تغادري الشقة قبل أن أتصل بالشرطة.. على أية حال، نايف نال ما يستحقه، وبيني وبينه المحاكم، وإذا كنت تريدينه فابحثي عنه واركضي خلف ذلك الكلب، فأنتم من طينة واحدة..

وأضافت وهي تغادر المكان: غداً سأعود، وحذار أن أجدك في الشقة.

لكن المرأة لم تعد في اليوم التالي ولا في اليوم الذي يليه.. فأخذت أحلام تحدث نفسها بأنها غريبة، وعليها أن تتدبر أمرها قبل أن تصل الأمور إلى الشرطة، وتجد نفسها في الشارع من جديد.. أحست بالغربة تسري في عروقها، وتمنت لو كانت والدتها عندها لتبكي على صدرها.. عندئذٍ أحست بيتمها وغربتها، وعاطفتها القوية تجاه والدتها، وفي الحال نهضت، لملمت حاجياتها واتجهت إلى المصرف الذي تتعامل معه.. سحبت رصيدها الذي قدّرت أنه يؤهلها لشراء شقة في بغداد، وتوجهت إلى موقف السفريات، واستقلت أول سيارة متجهة إلى العراق.

***

في الطريق أثناء عودتها، وقبل أن تصل أحلام بغداد بساعة تقريباً، أوقف مسلحون السيارة التي تستقلها مع ركاب آخرين، أنزلوا الركاب، فتشوهم ودققوا في جوازاتهم، كما فتشوا

السيارة وخلعوا مقاعدها، وأخذوا كل ما طالته أيديهم من نقود ومجوهرات، وعندما عثروا على مبلغ المال الكبير الذي في حقيبة أحلام، سلبوه منها، وأطلقوا النار عند قدميها، ثم أمروها بالصعود إلى السيارة مع راكبين اثنين فقط بالإضافة إلى السائق، واحتجزوا ثلاثة آخرين، قيدوهم في الحال وانطلقوا بهم عبر طريق صحراوي جانبي.. بينما سار السائق بمن معه حامدين الله على سلامة أرواحهم.

في بغداد، طلبت أحلام من السائق أن يوصلها إلى الحي الذي تقيم فيه قبل أن تغرب الشمس.. وما إنْ وقفت العربة أمام البيت حتى ترجلت منها، ونظرت إلى البيت الذي نشأت فيه.. وكان قد مضى على فراقها له ثلاثة أعوام.. فرأت والدتها تقف بالقرب من إحدى النوافذ تنظفها.. وما إنْ رأت أم سعد ابنتها صرخت "أحلام، ابنتي.."، وقبل أن تتم كلامها تعثرت ووقعت على درجات السلم.

ركضت أحلام نحو البيت قبل أن تُنزل حقائبها من السيارة، وفوجئت بأخيها سعد وجهاً لوجه أمام البيت، فقال: أخيراً عدتِ أيتها الساقطة.. وأخذ يصفعها على وجهها، ويركلها برجليه، فأخذت تصرخ مولية الأدبار باتجاه السيارة، ركبت فيها ثانية، وطلبت من السائق أن يبتعد عن البيت بسرعة.. وأخذ أخوها يهز قبضة يده يتوعدها والسيارة تبتعد.

توقفت السيارة في مكان ليس ببعيد عن بيت ذويها، حملت حقائبها وطرقت باب إحدى صديقاتها القديمات..

في اليوم التالي اتصلت أحلام بوالدتها، وأخبرتها عن مكان وجودها.. أسرعت والدتها إليها، ولم تصدق عينيها بعد أن بحثت عنها حتى يئست من كونها على قيد الحياة.. إذ كانت تعتقد أنها قتلت أثناء الحوادث التي تدور يومياً في بغداد وفي كل أنحاء العراق.. وبعد أن هدأت أضافت: فرخ البط عوام.. أخوك يريد أن يحرر العراق من الأمريكان.. والده كان قبله في السياسة التي متنا بسببها من الجوع، أهربي يا ابنتي وعودي من حيث أتيت، أخـوك جنّد أصحـابه للبحث عنك، وأقسم أن يذبحك.. وأنا كما ترين أعاني من الفقر والمرض.

أطلقت أحلام لدموعها العنان، وأخذت تروي لوالدتها ما حدث معها أثناء عودتها، وراحت تفكر في المصير الذي ينتظرها على يد أخيها سعد، وفي الحالة المحزنة التي وصلت إليها، حتى راودت نفسها بفكرة الانتحار.. ولم يكن لها سلوى غير السجائر التي كان دخانها يزيد في ضبابية الغرفة، متمنية لو لم تعد إلى بغداد، وبقيت في عمان.

في بغداد راحت تبحث عن عمل، ولم يكن بوسع صديقتها تقديم العون لها أكثر من أن تسمح لها بالإقامة عندها.. فهي امرأة عاطفية رقيقة القلب.. وكثيراً ما كانت تجلس معها،

تحدثها وتخفف مصابها بما ترويه لها من قصص الحرب وغزو قوات التحالف للعراق، الدمار والخطف والقتل وانفجار السيارات المفخخة التي تحدث يومياً في كل أنحاء البلاد، ودائماً كبش الفداء هم المدنيون من النساء والأطفال والشباب الذين يبحثون عن لقمة العيش، لا حول لهم ولا قوة.

يئست أحلام من الوضع المتردي في العراق، وسُدت كل الطرق في وجهها.. فكرت بالسفر ثانية إلى الأردن، خاصة وأن أخاها سعداً أخذ يتربص لها مع رفاقه "لمسح عاره"، كما قالت لها والدتها.. أقنعت والدتها بالسفر معها للعلاج في مستشفيات الأردن، وأخبرتها أنها كانت تعمل في صالون لتجميل السيدات في عمان.. وفي صباح اليوم التالي كانت سيارة أجرة تقلهما إلى حدود الكرامة الأردنية.

بعد الغروب، وقبل أن تصل السيارة التي تقل أحلام مع والدتها إلى عمان.. توقفت لعطل ميكانيكي جانب الشارع بين الزرقاء وعمان، فما كان من السائق إلا أن أوقف سيارة عابرة، وطلب من سائقها أن يوصل سيدة مريضة وابنتها إلى أقرب فندق في عمان.. ومنذ تلك اللحظة بدأت حكايتها مع يوسف).

***

عاد يوسف متأخراً في الليلة التالية.. تظاهرت أحلام بالتعب والإعياء، وجلست على السرير تهيل الدموع.. فزع يوسف وقام مسرعاً، أحضر لها كأساً من الماء، وسألها بدهشة:

- ماذا حدث لك، أخبريني؟

قالت بصوت حزين: اتركني الآن.

ذهل لصدها، وسألها ثانية وهو يحملق في وجهها:

- أخبريني، ماذا حدث لك؟

اعتدلت في جلستها ونظرت إلى الأرض، ثم أخفت وجهها براحتيها وقالت بهمس: لقد خدعتك.

فغر يوسف فاه وصمت، ولاحظت أحلام الاضطراب الذي أصابه وهو ينظر إليها وقد عقل لسانه.. فأضافت: نعم.. أنا خدعتك.

قال: لم أفهم شيئاً..

أرخت جسدها وأسبلت جفنيها وقالت:

- قلت لك سابقاً أن بيتنا احترق ودُمّر في حرب العراق، وضاعت كل أموالنا، وفي الحقيقة لم يكن لنا بيت ولم تكن لنا أموال.. والدي كان رجل سياسة فاعتقله رجال النظام المخلوع، ولم يُفرج عنه إلا قبل الحرب.. وعندما خرج كان مريضاً ولم يعرف زوجته ولا أولاده، ومات بعد شهر من خروجه.. أما أمي فأمضت حياتها تعيش من وراء تنظيف

بيوت الأغنياء والمكاتب، وهذا ما دفعني وأمي للمجيء إلى عمان للبحث عن لقمة العيش.

شعر يوسف بالراحة بعض الشيء لتصريحها هذا، إذ اعتقد أن في الأمر غير ذلك.. فأضافت: لم أخبرك بكل شيء بعد..

صمت واعتدل في جلسته، نظرت إليه، وراحت تسرد عليه قصة مجيئها إلى الأردن سابقاً، وتحيك ما جرى لها مع نايف وزوجته والمرأة العراقية التي خدعتها، كما يحلو لها ويتوافق مع مصلحتها.. كما روت له ما حدث لها أثناء عودتها إلى بغداد.. إلى أن عادت ثانية إلى الأردن والتقت به أثناء عطل ميكانيكي في السيارة التي تقلها مع والدتها من بغداد إلى عمان.

ظل يوسف صامتاً لدقيقة، ثم نظر إليها وقال:

- أنت أرغمتني على سماع ماضيك مرة ثانية، وأنا لا أريد ذلك، ومع ذلك مرّ الماضي وانتهى.

نظرت إليه وابتسمت بين الدموع وقالت:

- أشعر بالسعادة لأنك لم تكترث بالماضي، لكن اسمع الجانب المهم من قصتي.. إن الرجل الذي مثّل عليّ دور المحب وخدعني، ظهر في حياتي من جديد، قال أنه يعرفك

ويعرف عنك كل شيء، وهددني بالانتقام إذا لم أعطه مبلغاً من المال.. وأنا خائفة ولا أعرف ماذا أفعل!؟

ابتسم يوسف واحتضنها بين ذراعيه، امتناناً لصراحتها وصدقها.. وعندما شاهد الابتسامة تتسع على شفتيها، طمأنها ووعدها أنه سيقدم بلاغاً للشرطة بشأن التهديد والابتزاز، وطلب منها أن تترك العمل، وتتفرغ لتربية الطفل.

***

شهيدة الحب

تعودت عفاف على سجنها في غرفتها المظلمة.. وما كان بمقدورها أن ترى شيئاً خارجها من ثقب صغير بحجم رأس مسمار في الباب الحديدي غير كلب الحراسة في حركة دائبة، مربوط إلى الجدار المقابل بسلسلة حديد.. وفي مساحة محدودة من شعاع مصباح يدوي يحمله الحارس بيده في الليل، كان باستطاعة عفاف أن ترى الحارس في أنصاف الليالي يدور حول الغرفة، يُصفّر ويُخرج أصواتاً غير مفهومة، ثم يعود

ويقرفص أمام الكلب، يفك سلسلته، ويدور معه أرجاء المزرعة.

وفي أوقات متباعدة كان باب غرفة عفاف ينفرج، وتمتد يد الحارس بوجبة طعام.. فلا شيء يحرك غريزتها غير الطعام.. طعامها لا يتأخر كثيراً عن طعام الكلب.. وعليها أن تنتظر الطعام بعد ساعات قد تقصر أو تطول حسب ذاكرة الحارس.. وكثيراً ما أنهكها الجوع، تزحف بمحاذاة الجدران وتتحسسها للمرة المائة.. تنظر من ثقب الباب.. ترى الكلب يأكل ويحرك ذيله يميناً ويساراً ويسيل لعابه، ثم يقعي.. تتمنى لو ينفرج الباب وتأكل ما تبقى من طعامه.. تعود وتجلس، تسند ظهرها لأحد الجدران وتمد ساقيها ثانية إلى الأمام.. تغمض عينيها وتغيب في سبات عميق.

وما كان بمقدور حارس المزرعة مخالفة أوامر يوسف، فقد فرضت عليه ظروف العمل والعقد المبرم بينه وبين يوسف أن يتبع أوامره خوفاً من انقطاع رزقه في المزرعة، وكذلك زوجته، فلم يكن بمقدورها مخالفة أوامر زوجها، لكنها كانت تنتهز فرصة انشغاله في المزرعة، وتقوم بزيارة عفاف، تقدم

لها وجبات طعام إضافية، وتتحدثان.. يفصل بينهما باب حديدي صدئ، وتجمعهما الغربة والوحدة والعذاب..

وكثيراً ما تمنت عفاف الموت وهي تتحدث لزوجة الحارس عن عذاباتها ووحدتها في سجنها.. كانت تبكي وتنوح وتتحدث عن الرجل الذي خدعها واختفى من حياتها، قالت أنه وعدها بالزواج، ووعدها باللقاء قرب المزرعة، لكنه أخلف وعده، وتركها تواجه مصيرها وحدها..

وحين قصت زوجة المزارع قصة عفاف على زوجها، أضافت أنها فتاة عاقلة، ولا تعاني من مرض عقلي كما قال والدها، وطلبت منه أن يرأف بحالها، متمنية لو يفتح لها الباب ويدعوها للسهر معهم ومشاركتهم الطعام ليتأكد من صدق أقوالها.. ومع أنه أصر على موقفه، إلا أنه أخذ يتحدث مع عفاف، وينصت لما تقول من خلف الباب، وما بين فترة وأخرى، كان يفك قيد الكلب، ويفتح باب غرفة عفاف، فتخرج وتجلس تحت الشمس هادئة، تحت الحراسة المشددة.

أيام طويلة مرت وعفاف على هذه الحال.. ومرّت عدة أشهر قبل أن يلاحظ الحارس أن قوامها تغير، وأنها على وشك أن تصبح أماً.. فأشفق عليها، وأخذ يزيد في عدد الوجبات، وكانت تزحف نحو الطعام، تتحسسه وتلتهمه في الظلام.

ذات ليلة من ليالي الخريف، سمع الحارس عفاف تصرخ، أسرع وفتح الباب.. شاهدها تتخبط في دمائها وتتألم.. أسرع إلى هاتفه المحمول واستنجد بيوسف.. فقال له أن يدعها وشأنها حالما يصله خلال ساعة زمن.. وحين عاد الحارس إلى عفاف، لم يجدها في الغرفة.. كان الكلب ينبح ويقفز وثباً محاولاً فك قيده، وكان القمر بدراً والسماء صافية، وثب الكلب نحوه فمنعته السلسلة، وكاد يقع على الأرض.. دار حول الغرفة مرتين، ثم أسرع وفك قيد الكلب.. قفز الكلب واندفع بكل قوته يتبع أثر عفاف، شاهدها الحارس تتجه نحو سور المزرعة، وخُيل له أنها تحمل شيئاً بين يديها.. أسرع الكلب نحوها، أسرعت عفاف أيضاً وقد ضمت ذراعيها إلى صدرها ورأسها للأسفل، وأخذت تمشي بخفة وكأنها لا تطأ الأرض حتى وصلت حافة النهر، أخذ الكلب ينبح بصوت متقطع واقترب منها.. لم تتوقف، أمعن الحارس النظر، فشاهدها تلقي بشيء إلى الماء، قفز الكلب، تخطى عفاف ووقف قرب النهر ينبح، أسرع الحارس وأمسك بكتفي عفاف، استسلمت ليديه وعادت معه إلى غرفتها.. ثم أسرع يطلب زوجته التي كانت

نائمة في غرفتها، أيقظها على عجل وطلب منها مساعدة عفاف..

لم تدر زوجة الحارس ماذا تفعل بعد أن عرفت أن عفاف تعاني من نزيف حاد بعد إجهاضها، كانت ممددة على أرضية الغرفة مثل خرقة بالية، ولا شيء يصلها بالحياة غير الأنين وأنفاسها المتقطعة.. طلبت زوجة الحارس من زوجها أن يتدبر أمره وينقلها إلى المستشفى بأية طريقة، قال إنه طلب والدها وهو على وشك الوصول للمزرعة.. ومع ذلك قامت زوجة الحارس بتنظيف عفاف بالماء الساخن، وأخذت ترطب جبينها الحار بقطعة قماش مبللة بالماء البارد، لكن عفاف لم تصحُ، وراحت في غيبوبة أبدية.

قرابة الساعة التاسعة صباحاً وصل يوسف المزرعة.. أسرع مع الحارس ودلفا حجرة عفاف.. كانت شاحبة الوجه، وعيناها مفتوحتان، ولم تحرك ساكناً.. فجأة أحس يوسف بنبضات قلبه تتسارع، وغشيه دوار عشي عينيه ومنعه من الرؤية، تسارع الماضي إلى ذاكرته، قذف ما في أحشائه وهوى نحو ابنته التي فقدت الحياة منذ أكثر من ساعة.. احتضنها بين ذراعيه وأسبل جفنيها، ثم قام بنقلها إلى غرفة العائلة، وراح يبكيها بدموع حارة.

***

ظهيرة ذلك اليوم، دخل يوسف بيته متعباً مثقلاً بالهموم، وقال لزوجته مريم "لقد عثر حارس المزرعة على عفاف".

فغرت مريم فاها، وللحظات لم تنطق، أضاف:

- وجدها ميتة، ووسعتها رحمة الله.

تحجرت في عينيها دمعتان كحبتي رمل، وصرخت:

- كيف ماتت، وأين هي الآن؟ أريد أن أراها.
- قال الحارس أنه شاهدها ترقد تحت الأغصان قرب مياه النهر، كان وجهها شاحباً، واعتقد أنها نائمة، وعندما حاول تحريكها تبيّن له أنها باردة الجسد..

صرخت زوجته مريم ثانية: خذني إليها، أريد أن أراها. وراحت تلطم وجهها وتذرف الدموع.

أما والدته أمينة التي انطوت على نفسها بعد موت زوجها جاسر الفهد، وصارت تنسى الأسماء والوجوه وما تقول وما تسمع.. فقالت "الدوام لله، سبحان الحي الباقي، ماتت وارتاحت من عذاب الدنيا، إنا لله وإنا إليه راجعون".

أضاف: "بعد أن أخبرني الحارس هذا الصباح عما حصل لها.. ذهبتُ إليها وأحضرتها إلى المزرعة، وهناك سأعد لها قبراً يليق بها جانب قبر أبي".

انتشرت الأخبار سريعاً عن موت عفاف، وكأنما دوت صفارة إنذار بين الأقارب، فكل من سمع بحكايتها وتمنى لها الموت، تألم من أجلها.. وبعد أن كانوا يتحدثون عن عارها، صاروا يتحدثون عن موتها وراحتها.

في المزرعة، وبعد صلاة العصر، قام يوسف بتهيئة قبر لها بجوار قبر والده الحاج جاسر الفهد، وقامت الحاجّة أم حسن بضم ذراعي عفاف إلى صدرها كما كانت تفعل وهي على قيد الحياة، ثم رشت العطر على جثمانها، ولم تغسلها كما لم تكفنها، وقالت "إنها شهيدة"..

أصبح الجو حزيناً، وبدت الحقول باهتة اللون.. وعلى حين غرة هبت الرياح وحملت أكواما من أوراق الشجر الجافة.. وركعت والدتها قرب الجثمان تمسد جبينها، كان وجهها صافياً، وعيناها مغلقتين.. شعرها الأسود المشعث سُرّح وأسدل حول جبينها، وكانت آخر مشاعر الخوف بادية على ملامح وجهها، وعطر الياسمين والزهور البرية يفوح من كل جسدها الذي بدا يشبه المرمر البارد.

أقام المشيعون عليها صلاة الجنازة، وتم دفنها قرب قبر جدها.. وقفت شقيقتها بسمة وألقت على قبرها باقة من الورد، وقالت وهي تسح الدموع "من كان يتوقع أن نجدها بعد طول غياب ميتة، ونعد لها جنازة!"، بينما وضعت الحاجّة أم حسن أعشاباً خضراء وأزهاراً على القبر، وراحت تترحم عليها.

- لكلٍ منّا أوان.. نقوم صباحاً ولا ندري إذا كنا سنعود للنوم في فراشنا مساء!.. قالت جدتها أمينة، وترحمت عليها.. ثم راحت تصلي حتى تتغلب على مخاوفها وعجزها.

في تلك اللحظة، ظهر سرب لا نهاية له من طيور النورس والزرازير المنبثقة من الحقول والمزارع القريبة يسوّد السماء، وما لبث أن اختفى.. صارت السماء أكثر صفاء وأكثر بريقاً.. ذاب اللون الأخضر في غلبة الأصفر، هبت رياح الخريف واكتست الأرض بألوان ترابية، رمادية، بنيّة، مجبولة بذكريات لم تمت بعد.. وركعت والدتها مريم قرب قبر ابنتها تهيل الدموع، الأمر الذي دفع زوجها يوسف لاحتضانها بين ذراعيه والبكاء معها بدموع حقيقية.

وقبل أن تغادر مريم المكان برفقة زوجها وذويها، همست وكأنها تحدث نفسها "آه يا حبيبتي، كم تألمتِ، وماذا فعلت بك الأيام؟.. الله يرحمك يا عفاف، يا حبيبة القلب".

***

يوسف والحلم الأخير

عاد يوسف إلى أحلام بعد أكثر من أسبوعين، تمارضت وأخذت تبكي، وهي تخبره أن الرجل الذي كانت تعرفه سابقا

اقتحم البيت أثناء غيابه، وسرق محتويات حقيبتها، كما أخذ السلسال الذهبي الذي كان يطوق رقبتها.

جلس يوسف على مقعده يستمع لها ويرقب حركاتها، سألها:

- كيف سمحتِ لنفسك أن تفتحي الباب لشخص غريب أثناء غيابي!؟
- اعتقدتُ أنك أنت الذي يدق الجرس، وعندما فتحت الباب أمسكني من رقبتي وهددني بسكين في يده..

لم يقتنع يوسف بحكايتها، وتلاعبت بعقله أفكار شيطانية حول علاقة ما بينها وبين هذا الرجل.. وقال يحدث نفسه "إنها كاذبة.. ربما تحن إليه وتكذب عليّ".. ثم قام إلى الخزانة وراح يبحث عن شيء فيها، وكأنه يتفقد إذا كان الرجل قد أخذ شيئاً منها، فلم يجد ما يبحث عنه.. تذكر أخيراً أنه في حقيبته اليدوية.. وعندما وجده وضعه في جيبه، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويده على المسدس في جيبه، يفكّر ماذا يفعل!؟..

وراح أثناء ذلك يُخمّن ويتتبع بتفكيره حركاتها أثناء غيابه عن البيت..

"لقد حضر إليها أثناء غيابي عن البيت، وأعطته النقود والسلسال الذهبي، ثم لفّقت قصة التهديد وقالت أنه أخذها عنوة كما زعمت.. لكن، هل خانتني معه!، وهل عاد أكثر من مرة أثناء غيابي عن البيت!.. ماذا أفعل؟.. هل أبلّغ الشرطة، أم

أطلقها وأخلص منها!.. وابني!.. ماذا أفعل به!.. هل تقبله مريم وتقبل أن تربيه!؟".

احتار في أمرها، وبدت الظنون في رأسه مثل الكوابيس..

قالت وقد أدهشها سكوته: بماذا تفكر يا يوسف؟

أحنى رأسه وراح ينظر إلى جيبه، ثم حوّل نظره إليها دون أن يتفوه بكلمة.. نظرت إليه ثانية، شاهدت المسدس في يده.. جحظت عيناها، وتراجعت إلى الوراء، وما لبثت أن استعادت هدوءها وقالت: ضعه من يدك..

وقبل أن تكمل جملتها، انقض عليها، قبض على معصمها، وقال:

- أخبريني ما حدث بينكما بالتفصيل، وإلا قتلتك.

صرخت: عد إلى مكانك، ولا تتهور، اتركني..

لم يأبه لكلامها، دفعها بقوة فارتطمت بالحائط، قبضت على طرف الأريكة وأخذت تصرخ بصوت مرتفع:

- أطلق النار عليّ، اعمل مثل الأفلام.. البطل يقتل حبيبته، ثم يتبين له أنها بريئة.
- أنت كاذبة ومخادعة، لقد كذبت عليّ وخدعتِني مع ذلك القذر.

قالت بتوسل: ضع المسدس من يدك، أرجوك.. لا أعرف ماذا حدث، ولا أدري ما أقول لك بعد الذي قلته.. لقد قلت كل شيء.

- مهما حاولت الدفاع عن نفسك، فإنَّ ذلك لن يفيدك بشيء.
- تعرف أنه لا يريد غير النقود، ومثله لا يهتم بالنساء كما تفكر.
- هذه خدعة قديمة بطل مفعولها.. كنت أعتقد ذلك قبل أن يأتي خلسة بعد أن غادرت البيت.

وفكّرت أحلام لو تستطيع أن تهرب من وجهه، تبتعد عن فوهة المسدس المصوب نحوها، تقف عند الباب وتصرخ بأعلى صوتها، فيهب الناس لنجدتها.. لكنها تراجعت عن فكرتها، وقالت بهدوء:

- صدقني يا حبيبي، إني قلت لك ما حصل بالضبط.
- كِذبة قذرة لا أصدقها.
- صدقني أنا لم أكذب عليك.

استمر هذا الجدال بينهما أكثر من نصف ساعة، لم تستطع أحلام بعدها الاستمرار في الدفاع عن نفسها، سيما وأن دفاعها كان باطلاً أمام حجته.. فخفضت صوتها واضطربت أعصابها، احتضنت ابنها، ألقمته ثديها، وجلست على السرير تجهش

بالبكاء.. قالت أنها حاولت طعنه بالسكين عندما اعترف أنه تعرض لشرف ابنتك عفاف، ونال منها لينتقم منك.

نظر إليها بتعجب وقال: تعرض لشرف عفاف لينتقم مني**!؟**

- قال إنك حرمته منها وأخذت منه كل شيء.
- أنا لا أعرفه ولم أره من قبل.
- كيف لا تعرفه وقد قدّمت فيه بلاغاً للشرطة.. إنه نايف الذي تعرض لشرف ابنتك عفاف.. إنه إنسان مريض، يعتقد أني سبب بلائه بعد أن خلعته زوجته وأدخلته السجن، عندما عرفتْ أني أقيم في شقته قبل أن أعرفك.. وأنّك سبب تعاسته بعد أن فرّقتَ بينه وبين عفاف، عندما قدمت فيه بلاغاً للشرطة، ووافقت على خطبتها من غيره.. وقال بالحرف الواحد قبل أن يخرج من البيت "بلغي يوسف أننا متعادلان، هو أخذك مني وأنا سلبت شرف ابنته عفاف".

تسارعت الأحداث في عقل يوسف، أحس بدوار في رأسه، وتذكر الشخص الذي كان سبباً في تعاسة ابنته عفاف، وضع المسدس في جيبه، وتهاوى على مقعد قرب النافذة يفكر في الخيط الذي يربط الأحداث بعضها ببعض.. أيقن أنَّ أحلام تعرف كل أسراره وأسرار بيته، وأنها تخفي عنه الكثير مما

تعرف، وأن العلاقة التي تربطها بهذا الرجل ليست بريئة.. وربما خانته معه أكثر من مرة..

وخلال استعراضه لحياته خلال الفترة التي قضاها مع أحلام، شعر أنها تسير من سيّئ إلى أسوأ.. كما شعر أن أحلام تغيرت عن ذي قبل، فلم تعد في نظره ذلك الملاك الطاهر، بعد أن اطّلع على ماضيها وعرف أنه لم يكن الرجل الأول في حياتها.. إضافة إلى أنه خسر مريم ونفر أولاده منه، وتشتت شمل عائلته.

"أي مخلوق هذه!.. وهل تستحق العيش باحترام فعلاً، أم يجب أن تعود إلى ماضيها، تقبع فيه وتجتر الحسرات!.. إنها عشبة برية وتربتها غير صالحة للزراعة.. سآخذ ابني منها، ولن تعرفه في المستقبل.. سأقول إن أمه ماتت، نعم ماتت وهو طفل رضيع".. هذا ما حدّث به نفسه، وتمنى لو ماتت فعلاً عند الولادة.. فما سمعه وما اعترفت به عن ماضيها لشيء كثير على امرأة.. وتساءل في دخيلته "أهي حقاً تمضي جل وقتها داخل الصالون أم تغادره في فترات متقطعة!".. شعر بقلبه يحترق، وامتلأ رأسه بالوساوس والشكوك.. وفي قرارة نفسه أيقن أنها امرأة مخادعة، وربما عرفت أكثر من شخص..

وحدث نفسه "بعد كل الذي حدث لي أسمع هذا منها!.. سأرتكب جريمة وأقتلها حتماً".

وابتسم ساخراً من نفسه وهو يتأملها محدثاً نفسه بأن البقاء معها على هذه الحالة، أشبه بمن يسير في طريق ضيق وعر تملأه الأشواك، فإما أن يعود إدراجه أو يتابع طريقه متحدياً قدره، مع أن مصيره واضح للعيان.. وسوف يصبح طعاماً للأفاعي والحشرات.

نظر إليها ثانية وتأمل وجهها.. بدا له أنها تلبس قناعاً يخبئ تحته الكثير من الأسرار التي لا يعرفها.. تساءل في دخيلته "كيف يستطيع هذا الجمال أن يخفي أوراماً سرطانية تحته!.. إنها عار، مرض خبيث ويجب استئصاله".. فجأة تلاعبت برأسه أفكار شيطانية، وأحس بشعور غريب، تراءت له ألوان ورائحة وشكل هذه المرأة تُمحى من ذاكرته، مثل قمر يدخل المحاق ثم يتلاشى وراء سديم السحب، لكنه أخفى ما في سريرته وقام واقترب منها قائلاً:

- قومي بدّلي ثيابك بسرعة لنقدم بلاغاً إلى مركز الأمن بشأن التهديد والسلب.. إني أصدق كل ما قلتهِ لي.. أما نايف فأنا كفيل بحسابه، ولن يفلت مني هذه المرة.

قالت: صدقني، أنا قلت لك كل ما حصل، وكل ما أعرفه.

تحسس المسدس في جيبه ثانية وقال: كدت أطلق النار عليك قبل قليل، وما زلت على استعداد أن أفعل ذلك إذا لم تسرعي في القيام والقدوم معي.

- كما تريد، لكن تذكر أنك أهنتني بهذا التصرف وأهنت حبي لك..

قاطعها بنبرة حادة: هيا أسرعي، ودعينا من هذا الكلام الفارغ.

***

كان الجو حاراً، والساعة تقترب من السابعة مساء.. وكان يوسف متوتر الأعصاب بعد أن خرج من مركز الأمن، وراح يقود سيارته على غير هدى خارجاً من عمان، سالكاً شارع القدس، سألته أحلام:

- أين تقصد في هذا الوقت؟

هزَّ كتفيه، وقبض على مقود سيارته بعصبية ظاهرة، وظل ينظر إلى ذلك الشارع الطويل دون أن يقول كلمة واحدة.. أضافت:

- لا يهمني إلى أي مكان تذهب إليه، لكن أود أن أعرف فقط، وأرجوك أن تتخذ يمين الشارع وتضيء أنوار السيارة.

وردّد يوسف في داخله ما قالته "لا يهمني إلى أي مكان تذهب إليه".

ظهرت أمامهما في طريق نزولهما للأغوار، حيث المنعطفات الحادة، شاحنة كبيرة تسير في منتصف الشارع، تارة يتخذ سائقها المسرب الأيسر وتارة المسرب الأيمن، وكأنه يحاول منع أي سيارة من اجتيازه.

وفكر يوسف أنه لا بد أن يتجاوز الشاحنة عند أحد المنعطفات.. ولاحظت أحلام ذلك فقالت:

- لن أسألك مرة ثانية عن وجهة سيرك، لكن أرجو أن تكون متزناً في قيادة السيارة، ودعك من هذا السائق المتهور.

لم يجب، أضافت: أشعر بصداع شديد، ويكاد يُغمى عليّ.. أرجوك توقف حتى أخلع معطفي، إني أشعر بحرارة شديدة.

داس على كوابح السيارة وتوقف على جانب الشارع، قال:

- اخلعي معطفك.. سأرى ماذا تريدين بعد ذلك!

وراحت تخلع معطفها وتتلوى ذات اليمين وذات الشمال على المقعد بجانبه.. نظر إليها وراح يتذكر اللحظات الأخيرة

معها وهو يحمل المسدس، ويهم بإطلاق النار عليها، إلى أن توقف على جانب الشارع.. بعد دقائق من الصمت تابع سيره، وبلهجة تقطر نعومة ولطفاً قالت أحلام ثانية:

- هل يجوز لي أن أسألك الآن عن المكان الذي تقصده؟

تردد في الإجابة، أخفى ما بسريرته وقال:

- البحر الميت.. نبيت في شاليه، أو نقضي ليلتنا في المزرعة.

اطمأنت أحلام بعض الشيء.. وبدا يوسف في قيادة السيارة أكثر هدوءاً من قبل، لكن أفكاره ظلت تلاحق أحلام التي تمثل حلقة الوصل والضلع الثالث في مثلث عفاف، نايف وأحلام.. وفي ظلمات رأسه شاهد كمن يتراءى له في كوابيس أحلامه حفرة مفتوحة بجوار قبر ابنته عفاف في المزرعة، وشاهد أحلام تنزلق بداخلها وتنام بهدوء دون أن يتنبه إليها أحد.. هذا ما كان يفكر به، ولم يخطر بباله أن هذا الشارع بمنحدراته القوية والحادة تجعل كوابح السيارة زلقة أكثر من اللازم، خاصة أنه كثيراً ما كان يستعملها عند المنعطفات.. وبالفعل حدث له ذلك.. فقد كاد أن يصطدم بحافلة ركاب تجاوزها بسرعة، وعندما داس على الكوابح لم تستجب، ولم تهدئ السيارة سرعتها.. صرخت أحلام تحذره وتطلب منه أن يخفف سرعته ويتخذ الجانب الأيمن.. ولم تكن تعلم ماذا أصابه، لكنه

استطاع أن ينجو بأعجوبة.. فقد خدمه الحظ، وليست خبرته ومهارته.. وقالت والسيارة تزداد سرعتها أكثر من السابق:
- توقف، فأنا أقود أفضل منك..

قال وهو يقبض على مقود السيارة بكلتا يديه:

- لم يعد هناك كوابح، اربطي حزام الأمان واحضني الولد بين ذراعيك.

ذهلت أحلام، وقالت بسرعة: استعمل الغيارات العكسية..

لكن الوقت لم يكن في صالحه، فبينما هو يدور حول أحد المنعطفات، وكان أقرب إلى جهة اليسار منها إلى اليمين، ارتطم دولاب السيارة في رصيف الشارع، انفجرت العجلة واختل توازن السيارة، ارتفعت عن الأرض ثم سقطت وتدحرجت أكثر من مائة متر قبل أن تستقر في حفرة قريبة.. ارتخت يده عن المقود، وأحس بغشاوة تغطي عينيه، وغاب عن الوعي.

***

استعاد يوسف وعيه في مستشفى البشير في عمان، فتح عينيه، شاهد أحلام تجلس بجانبه على السرير وتجهش بالبكاء، وقد ضمد الأطباء رأسها ويدها اليمنى، بينما كانت يده اليسرى مغطاة بالجبس إثر كسر في ذراعه، ورأسه ملفوف بالشاش

الأبيض إثر الجروح التي أصابته جراء تحطم الزجاج الأمامي لسيارته.. سألها: أين أنا؟

قالت: في المستشفى، خفت عليك كثيراً، لكن الله سلمنا، ونقلنا أحد السائقين إلى عمان.

قال بلهفة: ابني، أين هو، هل هو بخير؟

ألقت برأسها على صدره تذرف الدموع وقالت: إنه بخير.

تنهد وقال: الحمد لله.

قالت: كتب الله لنا عمراً جديداً، ثم نظرت إلى وجهه معاتبة وقالت: ماذا لو مات أحدنا في الحادث!

أجاب: يبقى الثاني حياً.

مسحت دموعها بأناملها وراحة يدها وقالت: أهكذا تقولها بكل بساطة!؟

اكفهر وجهه وعبس وهو يتأمل حركاتها وقال:

- وهل تريدين أن نموت معاً حتى يعيش ابننا يتيم الأم والأب!

تنهدت وقالت: فكّر كما يحلو لك، المهم أننا نجونا كما نجا طفلنا والحمد لله.

ردد في أعماقه "المهم أننا نجونا".. وعادت الأحداث تمخر في رأسه من جديد.. همس وكأنه يحدث نفسه "أعتقد أن الله عـــــاقبني لأني أسأت الظن في تصرفات أحلام"..

ومع أن أحلام تماثلت للشفاء، إلا أن ابنها ساءت حالته، ونقله الأطباء إلى العناية الحثيثة، فقبعت على سريره تذرف الدموع.

***

صباح اليوم التالي، وبينما كان يوسف ممدداً في سريره، مسنداً رأسه على راحته اليمنى، ولج عماد غرفته، رفع رأسه وقال:

- أهلاً عماد، كيف عرفت أني هنا**!؟**

- الأخبار السيئة تنتشر بين الناس كالهواء، اتصل بك ولدك خالد هذا الصباح، فردت إحدى الممرضات، قالت أنك نائم، وعرف منها ما حدث معك.

- وأين هو الآن؟

- عرج على البيت ليخبر والدته بالأمر.. المهم أنت وصحتك، أخبرني ماذا حدث معك؟

أسند يوسف ظهره بمخدة وزفر متنهداً، وراح يقص ما حدث معه..

سأله عماد عن زوجته أحلام وعن ولده، فأجاب يوسف أنهما بخير.. قال عماد متسائلاً:

- أتعجبك هذه الحالة، وأنت بعيد عن زوجتك مريم وأولادك!

صمت يوسف لحظة، تغيرت ملامح وجهه وقال: آه لو تعلم كم أنا مشتاق لهم.

- دعني أصارحك بحقيقتك يا يوسف.. لا أدري كيف أصف لك شعوري، ولا أدري في الوقت نفسه ما الذي دعاك لمثل هذه التصرفات.. هل هو سوء الحظ الذي جمعك بمن كنت تسميها فتاة أحلامك أم حسن الحظ.. أم هي مجرد زوبعة في فنجان.. أنت بمثابة أخي، وأرجو ألا تغضب مما أقوله لك، فمن المؤسف أنَّ الأمور وصلت إلى حد القطيعة بينك وبين زوجتك مريم وأولادك بسبب أحلام، أحلام لا تفكر إلا في نفسها وصالحها، وعليك أنت أيضاً أن تعرف أين تكمن مصلحتك.. صدقني يا يوسف، أنا أحببتك قبل أن تكون زوجاً لشقيقتي، وسعدت بصداقتك.. أما أن تهجر زوجتك مريم وتختفي مع أحلامك، فهذا خطأ كبير ستندم عليه يوماً ما..

رفع يوسف رأسه وقاطعه:

- كفى يا عماد.. كفاني ما أنا فيه، لا أريد أن أسمع المزيد، فأحلام زوجتي ولي منها ابن.. كما أن شقيقتك زوجتي ولي منها أولاد أيضاً.. وليست المسألة أن الأمور كان بإمكانها أن تحدث بطريقة أخرى، بل حدثت بالفعل على هذه الطريقة.

فجأة دلف خالد الغرفة وقطع حديثهما، ومن خلفه ظهرت والدته مريم تقف قرب الباب.. نظرت إلى زوجها يوسف وقالت "سلامتك يا أبو خالد".

لم يصدق يوسف عينيه، شعر أنه بأمس الحاجة إليها، واجتاحته رغبة بالبكاء كطفل عادت إليه والدته بعد غياب طويل.. قال: تعالي، اجلسي هنا جنبي.. وأفسح المجال لتجلس جانبه على السرير.

وضعت مريم يدها على رأسه تتحسسه، فتناولها ولثمها، قال: سامحيني.. وفي نفس اللحظة ظهرت أحلام واقفة عند الباب، وأخذت تُنقّل نظراتها في وجوه الحاضرين قرب سرير يوسف كالبلهاء.. كانت الدموع تسح من عينيها، وترغب في الكلام، لكنها أصيبت بالخرس فجأة، وتراجعت إلى الوراء مسرعة دون أن تنطق بحرف.. وانسحبت مريم خارج الغرفة، فتبعها خالد وقال:

- لا تذهبي يا أمي، ولا تتركي هذه المرأة تنتصر عليك.

قالت مريم وقد بدا الحزن واضحاً على ملامح وجهها: لم يعد هناك منتصر ومهزوم.. والدك هو المهزوم.. إني أشفق عليه بعد هذا العمر.

فجأة تعالى إلى أسماعهم صراخ أحلام من غرفة جانبية.. أسرعوا نحوها، كانت تلطم وجهها، وقد غرقت في دموعها وحزنها، تنوح وتبكي طفلها الذي تدهورت صحته، وفارق الحياة.

خيّم صمْتٌ رهيب على المكان، واعتلت وجه الطفل صفرة مقيتة، لا شهيق ولا زفير يدل على استمرارية الحياة، أخذت أحلام تنظر يميناً ويساراً بنظرات بلهاء وهي تذرف الدموع، وتلاحق الروح التي شعرت أنها في مكان ما في الغرفة، ألقت بنفسها على طفلها وحضنته بقوة، حملته وأخذت تهرول في أزقة المستشفى، وتصرخ في الأطباء أن يفعلوا شيئاً له، صرخت بجنون، اختنق الصوت، وكأن شفرة حادة مررت على رقبتها، صرخت ثانية "ابني، حبيبي".. وهرولت إلى غرفة يوسف، أمسكت بكتفه وهزته "أنت المسئول عن موت ابني، أنت الذي قتلته"، وألقت بجسدها وجثة الصغير على سريره تنوح بألم وجيع.

انهار يوسف وأصابته رجفة قوية، امتقع لون وجهه، وأصابه ذهول، خرست الأصوات من حوله، كأنما أصيب بالصمم، وبدت الأضواء المخملية داكنة اللون بشعاع أسود، وكأنه أصيب بالعمى.. بدا عاجزاً أمام دموعها وجثة ابنه، انهار وأخذ يبكي بحرارة.. أعطاه الطبيب حقنة مهدئة..

وصمت الجميع ولسان حالهم يقول هذه إرادة الله وليس لهم إلا الصبر.

تغيرت ملامح مريم أيضاً، وتصلبت نظراتها، شهقت ومرت الأحداث في عينيها وفي ذاكرتها سريعة كلمح البصر، تذكرت ابنتها عفاف، وكيف عانت وذرفت الدموع من أجلها، واستعادت لحظاتها الأخيرة أثناء دفنها في المزرعة.. راحت تذرف الدموع من جديد وتقول "إنا لله وإنا إليه راجعون".

***

أيام سبعة عصيبة مرت على يوسف، لم يرَ خلالها أحلام ولم يسمع صوتها.. وحين تماثل للشفاء، وسمح له الأطباء بالخروج من المستشفى، مكث في بيته عند زوجته مريم عدة أيام صامتاً حزيناً.. وبدورها تجاهلت أحداث الماضي، أحضرت له فنجاناً من القهوة وجلست قبالته، وبلا عتاب قالت والحزن يملأ ملامح وجهها:

- لماذا لم تسأل عنها؟

بقي صامتاً، أغمض عينيه، ولاذ بوجهه بين راحتيه.. أضافت:

- خالد لم يتخلّ عنها، وطلبتُ منه بعد أن قام بعملية دفن الرضيع أن يقضي كل حاجاتها، لكنه لم يجدها.

رفع رأسه ونظر في وجهها، ولم يتفوه بكلمة واحدة، أضافت: أنا أم، وأعرف ما تلاقيه الأم عندما تفقد ابنها.. "الله يصبّرها ويسامح الجميع".. اتصل بها أو اذهب إليها، فقلبي ليس حجراً، ويكفيني العذاب الذي سببته لي عفاف.

صباح اليوم التالي، ذهب إليها، كان البيت خاوياً.. وقال له أحد الجيران أنها تركت البيت، ويقال أنها عادت إلى بغداد.

هام على وجهه في شوارع عمان، ازدادت دقات قلبه، وراح ضجيج أشبه بارتطام الأمواج المنتحرة على الصخور يولد لحناً جنائزياً في صدره.. شعر أن أسراب الطيور المهاجرة طارت، قذفت بأجسادها تترنح في الآفاق البعيدة وعادت إلى أوطانها.. انتابته قشعريرة، وبدأ عرق برائحة كريهة يتفصّد من جسده من جديد، طوّح ببصره يميناً ويساراً، رأى الأشياء شفافة مسربلة بالضباب، وشاهد الناس من حوله يتأرجحون، رؤوس وأجساد مقلوبة كالأشباح تراقصت في عينيه، غارت شفتاه وجفَّ ريقه، شعر بجسده ينهار، تلاشت الأصوات، تلاشت الرؤيا، تراءت له عفاف، تراءت له مريم، وغرق في متاهة أحلامه.

***

المؤلف في سطور

اسم الشهرة : إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي وباحث.
- مواليد صوبـا / قضاء القدس / عام ١٩٤٦ م .

- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- يكتب القصة القصيرة والرواية.
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين .
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..

مؤلفات ابراهيم الفقيه:

- **الروايات**

١. جذور في طريق التحرير- دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٤م.
٢. الهذيان – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٥م .
٣. ما زال للصبار روحٌ، دار النهضة، عمان ١٩٩٣م.

٤. الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٦م .
٥. الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م
٦. الأرض الحافيـة- دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م .
٧. نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .
٨. ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .
٩. أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م

- **مجموعات قصصية :**

١. القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م
٢. فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- **تاريخ :**

١. صـوبـا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – عمان ١٩٩٦م .

العنوان الإلكتروني faqeh46@hotmail.com
موقع صوبا www.subaa.com